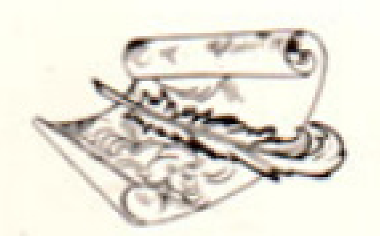
الأعلام من الأدباء والشعراء



لسان الدين ابن الخطيب

عصره، بيئته، حياته وآثاره

تأليف

أحمد حسن بسج

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء



لسان الدين ابن الخطيب

عصره، بيئته، حياته وآثاره

تأليف
أحمد حسن بسج

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٣ ٦٠٢١ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٠٠/٩٦١١/٦٠٢١٣٣ - ٠٠/١٢١٢/٤٧٨١٣٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تشكل هذه الدراسة، حلقة من سلسلة، وقد تناولت فيها شخصية من شخصيات بلاد الأندلس من عصورها المتأخرة، أعني في القرن الثامن الهجري، حيث تعرضت الممالك الإسلامية، في تلك الفترة إلى هجمات الفرنجة الذين بدأوا يستردون المدن، الواحدة تلو الأخرى، فشهد الأدب حالة من الجمود والمراوحة حيناً، والتقهقر حيناً آخر، إلاّ أن الدارسين، كما تبين لي، قد أهملوا دراسة لسان الدين ابن الخطيب بشكل عام وشامل، ومن جميع جوانب شخصيته: الأدبية والفكرية والسياسية والدينية، وإن تعرّض البعض إليه، فلم يتجاوز الإلمام السريع، أو الإشارة التي لا تغني ولا تسمن، ولا بد لي من أن أشير، بأن أهم ما ألّف حوله كتاب «ابن الخطيب من خلال كتبه» في سيرته، لمحمد بن أبي بكر التطواني، وكتاب آخر بعنوان «الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب»

عبد العزيز بن عبد الله. من هنا كانت الحاجة إلى كتاب ميسر
موجز، يكون عوناً للدارس والباحث والطالب، ولا أدّعي أنني
حققت الغرض المطلوب، ولكنني حاولت جهدي، وأرجو أن يلقى
هذا العمل قبولاً واستحساناً ويكون عند حسن ظن القراء الكرام،
إن كنت قد قصّرت أو زللت، فالمعذرة، وآمل أن يوفقني الله إلى
ما يحبه ويرضاه، لأتمكن من بلوغ المرام وتحقيق ما يخدم العلم
أهله.

أحمد حسن بسج
بيروت ٢٣ أيار ١٩٩٣
غرة ذي الحجة ١٤١٣

الفصل الأول

البيئة والعصر الأندلسيّان

صفة الأندلس:

يكتنف الغموض اسم «الأندلس» من حيث أصله ومنشؤه
وأغلب الظن أنه مشتق من «ڤنداليشيا» نسبة إلى القبيلة الجرماني
«ڤندال».

وقد أطلق العرب هذه التسمية على شبه جزيرة إيبريا بع
فتحها، وتقع بلاد الأندلس في جنوب غرب أوروبا يحدها البح
الأبيض المتوسط جنوباً، والمحيط الأطلسي غرباً، وفرنسا شمالاً
والبحر الأبيض المتوسط شرقاً.

وتتميز طبيعة البلاد بوعورة مسالكها وتشعب وديانها لكثر
الجبال فيها، وتخترق هذه الجبال عدة أنهار، منها نهر تاجه ونه
دويرة، ونهر الوادي الكبير، وقد قامت على هذه الأنهار مدن كبرى

وخصوصاً على الوادي الكبير نشأت قرطبة وإشبيلية وقرمونة.

وقد تحدث المؤرخون كثيراً حول صفة الأندلس وأهلها، من ذلك ما ذكره[1] لسان الدين ابن الخطيب: «... وقد خصها الله من الري، وغدق السقيا، ولذاذة الأقوات، وفراهة الحيوان، ودرور المياه، وكثرة الفواكه، وتبحر العمران، وجودة اللباس، وشرف الآنية، وكثرة السلاح، وصحة الهواء، وابيضاض ألوان الإنسان، ونبل الأذهان، وقبول الصنائع، وشهامة الطباع، ونفاذ الإدراك، وإحكام التمدن والاعتمار، بما حرمه الكثير من الأقطار».

قال الوزير ابن الحمارة في صفة الأندلس:

لاحت قراها بين خضرة أيكها
كالدر بين زبرجدٍ مكنونِ

وقال ابن سفر المريني[2]:

أنهارها فضة والمسك تربتها
والخز روضتها والدر حصباءُ

فتح الأندلس:

كانت إسبانيا والبرتغال تخضع لحكم القوط الغربيين حتى أواخر القرن الأول للهجرة، حيث فتح المسلمون شمالي إفريقية

---

(١) تاريخ أعمال الأعلام، ص ٤.
(٢) نفح الطيب ١/ ٢٠٩.

ومنها توجهت الجيوش إلى الأندلس، فنزل الجيش الأول بقياد
طارق بن زياد سنة ٩٢ للهجرة وكان ذلك بإذن أمير الجيش يومذا
موسى بن نصير، وتوغل المسلمون بعد ذلك في البلاد، وعاد موسى
وطارق إلى المغرب ومنها إلى دمشق، وقد خلّف موسى ابن
عبد العزيز والياً ومقره قرطبة، وتوالى العمال في الأندلس حتى بلغو
عشرين عاملاً كانوا يعينون مباشرة بأمر الخليفة في دمشق.

الأحوال السياسية:

لم تعرف تلك البلاد استقراراً قبل الفتح الإسلامي، بسبب
الصراعات على السلطة من جهة، واتساع الهوة بين الحكا
والمحكومين من جهة أخرى، وما أن دخل المسلمون البلاد حتى
أذعنت للحكم الجديد. وينقسم حكم المسلمين لإيبريا إلى عد
عصور تاريخية:

١ ــ عصر الولاة:

ويمتد منذ عام الفتح ليشمل ستة وأربعين عاماً تعاقب فيها على
حكم الأندلس ثمانية عشر والياً كان يعينهم الخليفة في دمشق
بمراسيم.

أما علاقة الولاة بعضهم ببعض، فلم تكن تخلو من الاضطراب
بسبب الصراع على السلطة، فأيقظوا بتناحرهم العصبية القبلية التي
تركت آثارها السيئة على أحوال البلاد عموماً، ومع ذلك يعتبر هذ
العصر عصر التأسيس والقوة، إذ استمرت فيه المواجهات العسكرية
على الثغور الشمالية ضد الفرنج، حتى وصل المسلمون إلى قلب

رنسا، ولكنهم لم يطيلوا البقاء لصعوبة الحياة في الجبال.

٢ ــ إمارة قرطبة:

أسسها عبد الرحمٰن بن معاوية[١]، الذي فرّ من الشام إثر الثورة العباسية وسقوط الدولة الأموية على أيدي الثائرين العباسيين وحلفائهم. دخل عبد الرحمٰن الأندلس سنة ١٣٨ هـ، واستطاع أن يوحد البلاد تحت إمرته فقضى على والي الأندلس للعباسيين يوسف الفهري واستقل عن الخلافة العباسية ببغداد. وتعاقب من بعده، في إمارة قرطبة ستة من أبنائه وأحفاده، انتهى حكمهم سنة ٣٠٠ هـ، وقد تميزت تلك الفترة بالأمن والعمران والنشاط الاقتصادي إضافة إلى النشاط العسكري عل الثغور.

خلافة قرطبة: ٣٠٠ هـ ــ ٤٢٢ هـ.

مع حلول سنة ٣٠٠ هـ، شهدت الدولة ضعفاً واضطراباً وصراعاً على السلطة، حتى تسلم الحكم عبد الرحمٰن بن محمد الملقب بالناصر، فأعلن نفسه خليفة سنة ٣١٦ هـ ولم يلبث أن أخمد الفتن وأعاد إلى البلاد وحدتها وأمنها. وينتهي حكم الأمويين سنة ٤٢٢ هـ بخلع آخر خلفائهم هشام الثالث.

٤ ــ ملوك الطوائف: ٤٠٠ هـ ــ ٥٣٦ هـ.

بدأ التفكك، قبيل انتهاء الحكم الأموي بقليل، وتحديداً عندما

---

(١) هو: عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بصقر قريش، ولد في دمشق سنة ١١٣ هـ ومات في قرطبة سنة ١٧٢ هـ، والمعروف بالداخل. (الأعلام: ٣/ ٣٣٨).

توفي الحاجب المنصور ابن أبي عامر، نشأت الصراعات والمنافسات على السلطة بين الأمويين أنفسهم، وبينهم وبين البربر، مما أفسح المجال لكل أمير أن يستقل في مدينته، فنشأت عدة دول وإمارات منها:

دولة بني هود في سرقسطة.
دولة بني رزين في شنتمرية.
دولة بني حمود في قرطبة ومالقة.
دولة بني عامر في بلنسية.
دولة بني عبّاد في إشبيلية، وكانت من أعظم الدويلات، وأعظم ملوكها المعتمد ابن عبّاد الذي عرف بذكائه وميله إلى الأدب والعلم.
دولة بني جهور في قرطبة، وكان من أشهر وزراء هذه الدولة ابن زيدون الشاعر.

عُرف هذا العصر بالضعف والاضطرابات والصراع على السلطة في كل الأنحاء، كما تميز العصر بتقصير الولاة في الدفاع عن ديارهم أمام هجمات الفرنجة، مما دفع أمير المغرب يوسف بن تاشفين إلى التدخل لنصرة المسلمين في الأندلس حيث التقى بجيش «الفونسو» في معركة الزلاقة فهزمه، وتكرر ذلك فعاد ابن تاشفين وخلع ملوك الطوائف جميعاً وأخضع البلاد لسيطرته المباشرة.

٥ ــ دولة المرابطين: ٤٩٥ هـ ــ ٥٥٥ هـ.

أسس هذه الدولة يحيى بن إبراهيم الكدالي، في المغرب، على دعائم دينية هدفها الإصلاح وتطبيق أحكام الإسلام، ولهذا السبب، كان يوسف بن تاشفين قد تدخل في الأندلس فأعاد الأمن

إليها وأعادها إلى كنف الخلافة العباسية، ومات مخلفه ابنه علي سنة ٥٠٠ هـ، فواجه ثورات عدة انتهت بخروج البلاد عن طاعته، فتدخل أمير المغرب الموحدي سنة ٥٥٥ هـ ليعيد الأمن إلى الأندلس.

٦ ــ دولة الموحدين: ٥٢٤ هـ ــ ٦٦٧ هـ.

وقد أسسها في المغرب محمد بن تومرت، ثم عبد المؤمن بن علي الذي دخل الأندلس سنة ٥٥٥ هـ بجيشه وقضى على دولة المرابطين، واستمر أبناؤه من بعده على سيرته في جهادهم للفرنجة في الأندلس، حتى عهد الناصر محمد بن يعقوب حيث بدأ الضعف يتسرب إلى جسد الدولة وبدأ سقوط المدن الإسلامية أمام هجمات الفرنجة حتى سقطت إشبيلية آخر مدن الموحدين سنة ١٢٣٩ هـ.

٧ ــ دولة بني الأحمر: ٦٣٥ هـ ــ ٨٩٨ هـ.

ينتسب بنو الأحمر إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج ويعرفون ببني نصر، وكانوا يقيمون في حصن من حصون قرطبة وهو حصن «أرغونة»، وقد استطاع محمد بن يوسف بن نصر سنة ٦٣٥ هـ أن يضم إلى مملكته خمس مدن هي: بسطة، ووادي آش، وشريش، ومالقة، وجيّان وفي سنة ٦٣٦ هـ استولى على مدينة غرناطة واتخذها عاصمة لدولته، ثم ضم إليها ألمرية، حتى صار محط آمال الأندلسيين ضد أهل الكفر من جميع الفئات.

أقام بنو الأحمر مملكة غرناطة، في وقت كانت النصارى يزدادون قوةً يوماً بعد يوم وينزلون الضربات بالمسلمين تدريجاً وينتزعون منهم المواقع الواحد تلو الآخر طيلة قرنين ونصف من الزمان انتهت بسقوط غرناطة سنة ٨٩٨ هـ.

تعاقب على حكم هذه الدولة عشرون ملكاً من أحفاد محمد بن يوسف بن نصر، وتميزت العهود المختلفة لهؤلاء الملوك بصراعهم الدائم مع الأعداء، وقد اعتبرها النصارى صراعات دينية مقدسة استعملوا فيها ما أوتوا من القوى وقد شجعهم على ذلك الاضطرابات الداخلية والتنافس على السلطة حتى بين الأب وابنه أو أخيه، كما حدث بين أبي الحسن علي بن سعد وابنه أبي عبد الله محمد ثم بين هذا الأخير وعمه المعروف بالزغَل، والذي حدث أن السلطان أبا الحسن خرج ليلاقي أعداءه بقيادة ملك قشتالة فرديناند، فعاد وقد بايع أهل غرناطة ابنه محمداً، ثم يؤسر محمد فيعود الوالد إلى السلطة بعد أن كان لاجئاً في مدينة بسطة، ويعود محمد من أسره، فيختلف الناس وينشب صراع دام بين الوالد والابن إلى أن تنازل الوالد إلى أخيه، فثار أبو عبد الله محمد، وكان في ألمرية فهاجمه عمه فيها ففر هارباً لاجئاً عند الاعداء مستغيثاً بفرديناند وإيزابيلا، فاستجمع قواه وعاد إلى غرناطة ليؤجج الصراع الدموي من جديد، فاستغل النصارى الفرصة وبدأوا هجماتهم العنيفة، فواجهها المسلمون بقيادة الزغَل، ولكنه لم يستطع الصمود طويلاً، فرأى أن يهادن النصارى المهاجمين الذين ساعدهم ووطأ لهم ابن أخيه الخائن، فتراجع عن عدة مواقع وسلمها للنصارى مكرهاً، حتى أحكم النصارى حصار غرناطة وطال الحصار وقاوم أهل غرناطة، ولم يروا بعد طول المعاناة إلا أن يسلموا كارهين بشروط لم يحترمها العدو، وخرج أبو عبد الله الشقي من قصر الحمراء باكياً والتحق بآل بيته الفارين فقالت له أمه: «ابكِ مثل النساء مُلكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجالِ».

وعبر أبو عبد الله إلى المغرب ونزل مدينة فاس واستقر فيها حتى مات سنة ٩٤٠ هـ. وبسقوط غرناطة، انتهت حضارة المسلمين ووجودهم في بلاد فتحوها وعمروها وأقاموا فيها حوالي ثمانية قرون من الزمان.

نظام الحكم في الأندلس:

كان الخليفة أو الأمير، هو الحاكم المطلق، يرجعون إليه في كافة الشؤون، فإذا كان قوياً استقامت أمور مملكته، وإن كان غير ذلك فكثيراً ما كانت تندلع الاضطرابات، وقد عرفت بلاد الأندلس خلفاء وأمراء أقوياء يرجع لهم الفضل في تأسيس دولة قوية عاشت قروناً عدة، وقد مهدوا لنشوء حضارة زاهرة، من هؤلاء عبد الرحمٰن الداخل والناصر والمنصور ابن أبي عامر، ثم في العهود التالية شهدت فترات استقرار نشأت فيها نهضة شاملة، أيام حكم الطوائف والموحدين وفي مملكة غرناطة بالرغم مما كان يحدث من صراعات وفتن.

أما الإدارة فعرفت تنظيماً راقياً، وكان الحاجب يمثل أعلى المناصب الإدارية وهو بمنزلة رئيس الوزراء اليوم، وكان هذا المنصب مداراً لاهتمام الطامحين ولطالما تنافسوا وتحاسدوا للوصول إلى رتبة الحجابة.

ومن الحجاب، من لعب دوراً خطيراً في سياسة البلاد، وأعني الحاجب المنصور ابن أبي عامر الذي عزل الخليفة وتفرّد بالسلطة واستطاع أن يحكم البلاد ويشيع الأمن ويواصل الجهاد على أحسن

ما يكون.

ومن الإدارات الأخرى التي اهتم بها الحكام، نظراً لما تشكله على صعيد النظام العام، رتبة الكتابة، ومنها كتابة الرسائل وعلى رأسها أديب، وكتابة الزمام وعلى رأسها كاتب حسابات. ومن الدوائر أيضاً؛ دائرة الخراج وصاحبها أعلى من الوزير، كذلك القضاء، ولعل وظيفته الأهم لعلاقتها بالدين وكان القاضي يختار من الفقهاء العلماء ويتمتع بصلاحيات واسعة. كذلك الشرطة، ويتمتع صاحبها بصلاحية القتل لمن يستحق دون الرجوع إلى الأمير، ومن الدوائر الهامة: الحسبة وتعنى بمراقبة الأسعار.

الحياة الاجتماعية:

تألّف الشعب الأندلسي من عدة عناصر أهمها: العرب، والبربر، والموالي، والمولدون، وأهل الذمة من النصارى واليهود. فالعرب شكلوا الطبقة الأرستقراطية الحاكمة، وتعاملوا مع العناصر الأخرى بشيء من الاحتقار، أما البربر فهم من الأفارقة الشماليين الذين تشكل منهم جيش الفتح أولاً ثم استوطنوا بعد ذلك على دفعات في بلاد الأندلس. أما الموالي، فقد ساهموا في توطيد الحكم الأموي عند تأسيس الدولة أيام الداخل. والمولدون هم الجيل الذي نشأ بعد الفتح من خلال اندماج العناصر في البلاد المفتوحة، وصاروا فيما بعد يؤلفون السواد الأعظم من الشعب الأندلسي. أما أهل الذمة، فهم النصارى واليهود من أهل البلاد، والذين حافظوا على سماتهم الدينية وأذعنوا للحكم الإسلامي.

على كل حال، فإن هذه العناصر المختلفة، اندمجت، وتضافرت، لتؤلف شعباً واحداً له عاداته وتقاليده التي تمسّك بها وحافظ عليها واعتز بها، من ذلك حبهم للنظافة، واعتمادهم على أنفسهم، وحسن تدبيرهم، وبغضهم للتسول والإذلال. أما أزياؤهم فالأكثرية منهم لم تكن تضع العمائم، إلا الفقهاء والقضاة، بينما تزيا السلاطين والجنود بزي النصارى[1]، ومن أهم ما لبسوا: الطيلسان للعوام والخواص، أما غفائر الصوف، فوضعوها حمراً وخضراً، أما الصفر فكانت مخصوصة لليهود الذين منعت عنهم العمائم. والجدير بالذكر أن البياض كان لباسهم في الأحزان.

وللمرأة أزياؤها أيضاً، فهي أنيقة، تهتم بلباسها وزينتها وحليها، ولم تتخل مع ذلك عن الحجاب، أما الإماء فلم يتقيدن به. أما العلاقة بين المرأة والرجل، فإنها أي المرأة، كانت تتمتع باحترام الرجال وكانت لها سلطة نافذة خصوصاً في بيوت الأمراء حيث تتعدد الزوجات وتكثر الإماء، فكن لذلك يتحاسدن، وتفوز الأقرب إلى قلب الأمير. ومن مظاهر تدخل النساء في شؤون الحكم أن بعض النساء الاسبانيات كن يتجسسن على الحكام سراً. مما عاد بأوخم العواقب على الدولة.

الأحوال الاقتصادية وتأثيرها:

قد أشرنا آنفاً إلى طبيعة بلاد الأندلس وما فيها من ثروات

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٢٠.

خصوصاً المياه مما أفسح المجال أمام نهضة زراعية لا بأس بها. وذلك فضلاً عن الثروات الأخرى كالمعادن التي استثمروها وقامت عليها صناعات متطورة، كصناعة الملابس والمنسوجات، والزجاج والأواني المعدنية، والأسلحة وغير ذلك كالأثاث الفاخر وغيره من مستلزمات الحياة، وهكذا قامت حضارة راقية في كافة مدن الأندلس تجلت في مظاهر كثيرة منها تعلقهم بالغناء والموسيقى، فتهافت الأثرياء على امتلاك الجواري الحسان اللواتي كن يجدن العزف والغناء، وقد تدفق أهل هذه الصنعة من الشرق، من امثال «فضل» و«علم» المغنيتين قدمتا من المدينة أيام عبد الرحمٰن الداخل، ثم زرياب الذي وطد لقيام مذهب جديد في العزف والغناء أساسه العزف الشرقي واهتم الأندلسيون بهذا الفن إلى حد وضع المؤلفات، فوضع يحيى المرسي كتاباً سمّاه «الأغاني الأندلسية»، ومن المدن التي اشتهرت بالغناء: إشبيلية.

وكما انعكس الثراء على الحياة العامة والميل إلى حياة الترف والاستغراق في الملاهي والملذات، كذلك ظهر أثر الغنى في العمران والتشييد، فتنافس الناس في بناء الدور الفخمة والحدائق العامرة الزاهرة، وكذلك الحكام فأنشأوا المساجد والمدارس، والجسور والقصور، ويذكر هنا عبد الرحمٰن الداخل، والذين جاؤوا من بعده، والمنصور ابن أبي عامر بنى مدينة متكاملة هي الزاهرة على غرار مدينة الزهراء، وكذلك فعل المتأخرون في العهود اللاحقة وصولاً إلى عهد بني الأحمر ومن أعظم ما يسجل لهم في مجال العمران قصرهم الكبير المعروف بالحمراء، الذي ما زال قائماً حتى اليوم، في غرناطة، وهو يشهد على عظمة حضارة ثمانية قرون.

الحال الثقافية:

أتاحت عصور القوة في طور تأسيس الدولة وما بعد ذلك، نهضةً علمية ونشاطاً ثقافياً، وحركة أدبية ساهم فيها الأمراء والخلفاء من قبل، فعبد الرحمٰن الداخل كان شاعراً، والحكم بن هشام قرّب العلماء والفقهاء، وعبد الرحمٰن الأوسط شجّع العلوم والآداب عموماً لأنه كان شاعراً فقيهاً، وهكذا لنصل إلى عصر الطوائف فهاك المعتمد ابن عباد، الذي احتضن حركة أدبية لا مثيل لها في عصره وهو نفسه كان فصيحاً شاعراً جواداً وسلاطين الموحدين كذلك ضربوا بنصيب في تشجيع أهل العلم، وصولاً إلى دولة بني الأحمر التي شهدت نشاطاً أدبياً ملحوظاً وقد ساعد على نشوء هذه الحركة التقدم الفرنجي واكتساح المواقع الإسلامية، مما اضطر أهل العلم والفنون للجوء إلى غرناطة قبل سقوطها، ولذلك فإن الأدب في هذا العصر يغلب عليه طابع الاستغاثة واستنهاض الهمم وخصوصاً سلاطين المغرب طلباً للنجدة والوقوف أمام الزحف الأوروبي، وكثيراً ما كانت تذهب صرخات الشعراء وغيرهم سدى فلا من يسمع ولا من يلبي. وانصرف جماعة من الشعراء والكتاب لتدوين الهزائم والانكسارات الكثيرة أمام الأعداء، كما أن ذلك الأدب يسجل مظاهر الحياة اللاهية، وصنوف الترف والملذات التي غرق فيها أهل البلاد وخلّوا الساحة للمتربصين بالإسلام شراً، ومن أعجب ما يروى في هذا السبيل خروج أهل بلنسية بكامل زينتهم ليصدوا العدو، فيقعون في هزيمة شنعاء في موقعة «بطرنة»،

ويقول[1] أحد شعرائهم في ذلك:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم
حلل الحرير عليكم ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها
لو لم يكن ببطرنة ما كانا

ومن أهم الفنون التي استحدثها الأندلسيون في هذا العصر الموشحات والأزجال، ويذكر هنا أبو بكر بن زهر. أما أكبر شعراء العصر وكتّابهم فالوزير لسان الدين ابن الخطيب وزير محمد الخامس ابن الأحمر، كما عُرف من الكتّاب تلميذ ابن الخطيب ابن زمرك، ومن المفيد أن نذكر بالدور الكبير الذي قام به كل من محمد الثاني وأبو الحجاج يوسف الأول وابنه محمد الخامس، في تشجيع الآداب والفنون والعمران.

وإذا كان الشعر في العصور السابقة قد عرف التعددية في الأغراض من هجاء ومدح ووصف وغزل ورثاء وغير ذلك، فإنه في هذا العصر قد ضاقت دوائره، نظراً للظروف السياسية والعسكرية المضطربة؛ فالرثاء تحوّل من رثاء لميت إلى رثاء جماعي ولكن ليس للبشر إنما للأمجاد الزائلة وللمدن التي تساقطت الواحدة تلو الأخرى في أيدي النصارى.

وكانت بدايات هذا النوع من الرثاء عند سقوط طليطلة ألا وهي أول مدينة يستعيدها النصارى سنة ٤٧٨ هـ، فكان سقوطها صفعة

(١) الأدب العربي في الأندلس عتيق ١٢٩.

عنيفة هزّت المشاعر وألهبتها فرثاها بعضهم[1] قائلاً:

لثكلِـــك كيـــف تبتســـم الثغـــور
ســـروراً بعـــد مـــا بئســـت ثغـــور؟
أمـــا وأبـــي مصـــابٌ هـــدّ منـــه
ثبيـــر الـــدين فـــاتصـــل الثبـــور
طليطلـــة أبـــاح الكفـــر منهـــا
حمـــاهـــا... إن ذا نبـــأ كبيـــر
ألـــم تـــك معقـــلاً للـــديـــن صعبـــاً
فـــذلله كمـــا شـــاء القـــديـــرَ؟
فيـــا أسفـــاه يـــا أسفـــاه حـــزنـــاً
يكـــرر مـــا تكـــررت الـــدهـــور؟

وها هو ابن خفاجة الأندلسي يرثي بلنسية عند سقوطها سنة ٤٨٨ هـ:

عـــاثـــت بســـاحتـــك العـــدى يـــا دار
ومحـــا محـــاسنـــك البلـــى والنـــار
فـــإذا تـــردد فـــي جنـــابـــك نـــاظـــر
طـــال اعتبـــارٌ فيـــك واستعبـــار

والمدينة نفسها استردها المسلمون في عهد المرابطين، ولكن النصارى احتلوها ثانية سنة ٦٣٦ هـ فرثاها أبو المطرف بن عميرة المخزومي:

---

(١) الأبيات أوردها د. عتيق في «الأدب العربي في الأندلس»: ٣٢١.

أمِــن بعــد رزءٍ فــي بلنسيــة ثــوى
بـأحنـائنـا كـالنـار مضـرمـة الـوقـدِ
يــرجــي أنــاسٌ جنــةً مــن مصــائــبٍ
تطــاعــن فيهــم بــالمثقفــة الملــد

أما أروع ما قيل في هذا الفن، فهي قصيدة أبي البقاء ابن صالح بن شريف الرندي، وهي أشجى ما قيل في هذا المجال وهي لم تكن رثاءً لمدينة فحسب، بل رثى فيها الشاعر الأندلس وأمجاد الأندلس، وصوّر مأساة المسلمين هناك أيما تصوير، وبكاها وذرف الدموع وكأنه يتكلم بكل لسان. يقول:

لكــل شــيء إذا مــا تــم نقصــان
فــلا يغــر بطيــب العيــش إنســانُ
هــي الأمــور ــ كمــا شــاهــدتهــا ــ دول
مــن ســرّه زمــن ســاءتــه أزمــان
وهــذه الــدار لا تبقــي علــى أحــدٍ
ولا يــدوم علــى حــال لهــا شــان
فجــائــع الــدهــر أنــواع منــوعــة
وللــزمــان مســرات وأحــزان
وللحــوادث سلــوان يسهلهــا
ومــا لمــا حــل بــالإســلام سلــوان
وهــي الجــزيــرة أمــر لا عــزاء لــه
هــوى لــه أُحُــدٌ وانهــدّ ثهــلان
فــاســأل بلنسيــة: مــا شــأن مــرسيــة
وأيــن شــاطبــة أم أيــن حيّــان

يـــا مَـــن لـــذلـــة قـــوم بعـــد عـــزّهـــم
أحـــــال حـــــالهـــــم كفـــــر وطغيـــــان

بـــالأمـــس كـــانـــوا ملـــوكـــاً فـــي منـــازلهـــم
واليـــوم هـــم فـــي بـــلاد الكفـــر عبـــدان

وقد تميّز هذا النوع من المراثي بصدق العاطفة والإكثار من ذكر الفواجع والبكاء والتحسر، بالإضافة إلى اعتمادها على أساليب الإنشاء وإكثارها من الاستعارات والتشبيهات من أجل إبراز المعاني وتجسيدها لتبدو الصورة ماثلة في ذهن القارىء وفي مخيلته.

كما عرف الشعر التعليمي في العصور المتأخرة، فنظم الأندلسيون الأراجيز والقصائد في الحكمة وفي الفنون التعليمية المختلفة وفي سرد الحوادث التاريخية. ومن الأمثلة على ذلك: ألفية ابن معطي في النحو وألفية ابن مالك، وللسان الدين ابن الخطيب منظومات كثيرة سنذكرها مفصلة فيما بعد عند الحديث عن مؤلفاته. ومن فنون البديع ما نظمه محمد بن جابر الأندلسي المتوفى سنة ٧٨٠ هـ. وقد نظموا في التوحيد والفقه والبلاغة والتجويد والنحو والصرف وعلوم الفلك والهندسة والحساب والطب وقد شرح ابن المهنا الطبيب تلميذ لسان الدين ابن الخطيب ألفية ابن سينا في الطب.

ومن الأراجيز التاريخية، ما بدأه يحيى الغزال في القرن الثالث الهجري ثم ابن عبد ربه الذي نظم غزوات الناصر في أرجوزة مطولة. ثم أبو طالب عبد الجبار نظم أرجوزة حتى قيام دولة

المرابطين، وقد نظم ابن الخطيب تاريخ دول الإسلام في أرجوزة سمّاها «رقم الحلل».

وبالرغم مما ذكرناه فإن الشعراء لم يهملوا الأغراض الأدبية الأخرى، كالوصف والمدح والرثاء والتصوف والألغاز وغير ذلك.

يقول أبو الحسن علي بن الجياب[1] من الأغراض الصوفية:

هاتِ اسقني صِرفاً بغير مزاج
راحي التي هي راحتي وعلاجي
والمشرب الأصفى الذي من ذاقه
فقد اهتدى منه بنورِ سراجِ
أن لا ترى إلا الحقيقة وحدها
والكل مضطر إليها لاجي

وقال مادحاً[2]:

ملكٌ إذا صال يوماً صولة
خِلت البسيطة زلزلت زلزالها
فبسيبه وبسيفه نلتَ المنى
واستعجلت أعداؤه آجالها
فإذا عفاتك عاينوك تهللوا
لما رأوا من كفك استهلالها

---

(١) أبو الحسن الجياب من أشياخ لسان الدين والأبيات في نفح الطيب ٥/ ٤٣٤.

(٢) نفح الطيب: ٥/ ٤٣٦.

وقال في الشيب[1] :

وقــــائلـــة: لـــم عـــراكَ المشيـــب
وما إن بعهـد الصبـا مـن قِـدَمْ
فقلـت لهـا لـم أشـب كبـرةً
ولكنـه الهـمّ نصـف الهـرم

وفي الرثاء يقول الفقيه أبو عبد الله بن جُزَي[2] :

وما لـدموع العيـن فضـت كـأنهـا
فـواقـعُ زهـرٍ والجفـون كمـائمـهْ
ومـا نفعـت ربَّ الجيـاد كـرامـه
ولا منعـت منـه الغنـي كـرائمـه
وكـل تـلاق فـالفـراق أمـامـه
وكـل طلـوع فـالغـروب مـلازمـه

وفي الوصف قال أبو زكريا يحيى بن هذيل[3] :

نـام طفـل النبـت فـي حجـر النعـامى
لاهتـزاز الطـل فـي مهـد الخـزامـى
وسمـا الـوسمـي أغصـان النقـا
فهـوت تلثـم أفـواه النـدامـى

(١) نفح الطيب: ٥/ ٤٤٢.
(٢) نفح الطيب: ٥/ ٤٤٨. يرثي فيها الشيخ علي بن الجيّاب.
(٣) نفح الطيب: ٥/ ٤٨٧، وأبو زكريا من شيوخ ابن الخطيب أيضاً.

كحلَ الفجر لهم جفن الدجى
وغدا في وجنة الصبح لثاما
تحسب البدر محيّا ثملٍ
قد سقته راحةُ الصبحِ مداما
حوله الزُهر كؤوسٌ قد غدت
مسكة الليل عليهم ختاما...

وفي مدح النبي ﷺ يقول أبو سعيد فرج بن لب (٧٠١ ــ ٧٨٣ هـ)[1]:

فيا فوز من فاز في طيبةٍ
بلثم المغاني جداراً جدارا
وألصق خداً على تربها
وأكملَ حجابها واعتمارا
وأهدى السلام لخير الأنام
على حينَ وافى عليه مزارا...

وفي وصف الطبيعة يقول ابن مرج الكحل المتوفى سنة ٦٣٤ هـ[2]:

طَفَلَ المساء وللنسيم تضوّع
والأنس يجمع شملنا ويجمعُ

(١) نفح الطيب: ٥/٥٠٩.
(٢) نفح الطيب: ٥/٥٥ و٥٣.

والــزهــر يضحــك مــن بقــاء غــمامةٍ
ريعــت شَيْــم سيــوف بــرقٍ تلمــع
والنهــر مــن طــرب يصفــق مــوجــه
والغصن موجُه يرقُص والحمامة تسجع

وفي الغزل يقول صفوان بن إدريس التجيبي المرسي أبو بحر (٥٦٠ ـ ٥٩٨ هـ)[١]:

يــا قمــراً مطلعــه أضلعــي
لــه ســواد القلــب فيهــا غســقْ
وربمــا استــوقــد نــار الهــوى
فنــاب فيهــا لــونهــا عــن شفــق
ملّكتنــي فــي دولــةٍ مــن صِبــاً
وصــدتنــي فــي شــركٍ مــن حــدق
عنــديَ مــن حبّــك مــا لــو سَــرَتْ
فــي البحــر منــه شعلــة لاحتــرق

(١) نفح الطيب: ٥/ ٦٢، ٦٧.

الفصل الثانـي
لسان الدين ابن الخطيب
حياته وسيرته

(٧١٣ هـ ــ ٧٧٦ هـ)
(١٣١٣ م ــ ١٣٧٤ م)

هو[١] ــ كما عرّف بنفسه ــ محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي ابن أحمد السلماني، قرطبي الأصل، ثم طليطليه، ثم لوشيه، ثم غرناطيه، يكنى أبا عبد الله، ويلقّب من الألقاب المشرقية بلسان الدين. ويتحدث عن أوليته قائلاً[٢] : «يعرف بيتنا في القديم بوزير، ثم حديثاً بلوشة ببني الخطيب، انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية كيحيى بن يحيى الليثي وأمثاله عند وقعة الربض الشهيرة، إلى طليطلة، ثم تسربوا محومين على وطنهم قبل

---

(١) نفح الطيب: ٥/ ٩.
(٢) نفح الطيب: ٥/ ١٠. نقلاً عن «الإحاطة».

استيلاء الطاغية عليه، فاستقر منهم بالموسطة الأندلسية جملة من النبلاء تضمن منهم ذكر خلق، كعبد الرحمن قاضي كورة باغة، وسعيد المستوطن بلوشة الخطيب بها، المقرون اسمه بالتسويد عند أهلها، جارياً مجرى التسمية بالمركب في تاريخ الغافقي وغيره وسكن عقبهم بها، وسكن بعضهم منتقرير مملكين إياها مختطين جبل التحصن والمنعة فنسبوا إليها.

وكان سعيد هذا من أهل العلم والخير والصلاح والدين والفضل وزكاء الطعمة، أوقفني الوزير أبو الحكم بن محمد المنتقريري ــ وهو بقية هذا البيت وإخباريه ــ على جدار برج ببعض ربى أملاكنا بلوشة تطؤه الطريق المارة من غرناطة إلى إشبيلية، وقال: كان جدك يذيع بهذا المكان فصولاً من العلم، ويجهر بتلاوة القرآن، فيستوقف الرفاق المدلجة الحنين إلى نغمته، والخشوع إلى صدقه، فتعرّس رحالها لصق جداره، وتريح ظهرها موهناً إلى أن يأتي على ورده. وتوفي وقد أصيب بأهله وحرمه عندما تغلب العدو على بلده عنوة في خبر طويل. وقفت على مكتوبات من المتوكل على الله محمد بن يوسف بن هود أمير المسلمين بالأندلس في غرض إعانته والشفاعة إلى الملكة زوج سلطان قشتالة بما يدل على نباهته قديماً ويفيد إثارة عبرة، واستقالة عثرة. وتخلف ولده عبد الله جارياً مجراه في التجلد والتمعش من حر النشب، والتزي بالانقباض، والتحلي بالنزاهة، إلى أن توفي وتخلف ولده سعيداً جدنا الأقرب، وكان صدراً خيّراً مستولياً على خلال حميدة، من خط وتلاوة وفقه وحساب وأدب نافس جيرته بني الطنجالي الهاشميين، وتحول إلى غرناطة، عندما شعر بعملهم على الثورة، واستطلاعهم إلى النزوة التي خضدت الشوكة، واستأصلت منهم الشأفة، وصاهر بها

الأعيان من بني أضحى بن عبد اللطيف الهمداني أشراف جند حمص الداخلين إلى الجزيرة في طليعة بلج بن بشر القشيري ولحقه من جراء منافسيه لما جاهروا السلطان بالخلعان اعتقال اعتبه السلطان بعده، وأحظاه على تفئته، وولاه الأعمال النبيهة والخطط الرفيعة». وتوفي جده سنة ٦٨٣ هـ، ونشأ والده في كنف أمه مترفاً منعماً، ثم انتقل إلى كوشة بلد سلفه مخصوصاً بلقب الوزارة، إلى أن قصدها السلطان أبو الوليد متخطياً إلى الحضرة هاوياً إلى ملك البيضة، فعضد أمره، وأدخله بلده. وقد فقد في الكائنة العظمى بطريف سنة ٧٤١ هـ، مع ولد له آخر غير لسان الدين. وقد كان والده «ذمر عزم، ورجل رجاء وأزم، تروق أنوار خلاله الباهرة، وتضيء مجالس الملوك من صورتيه الباطنة والظاهرة، ذكاء يتوقد، وطلاقة يحسد نورها الفرقد، وكانت له في الأدب فريضة، وفي النادرة العذبة منادح عريضة، تكلمت يوماً بين يديه في مسائل من الطب وأنشدته أبياتاً من شعري ورقاعاً من إنشائي فتهلل، وما برح أن ارتجل»[1] :

الطـــب والشعـــر والكتـــابـــه
سمـــاتنـــا في بنـــي النجـــابـــهْ
هـــن ثـــلاثٌ مبلِّغـــات
مـــراتبـــاً بعضهـــا الحجـــابـــه

ومن شعره:

عليـك بـالصمـت فكـم نـاطـق
كـــلامـــه أدى إلى كلمِـــه

(١) نفح الطيب: ٥/١٦. عن لسان الدين في كتابه «الإحاطة».

إن لســـــان المــــــرء أهـــــدى إلى
غِـــــرتـــــه والله مــــن خصمـــــه
يــــرى صغير الجــــرم مستضعفــــاً
وجـــرمـــه أكبر مــــن جِـــرمِـــه

وقد رثاه لسان الدين بقصيدة منها[1] :

سهـــام المنـــايـــا لا تطيـــش ولا تخطـــي
وللـــدهـــر كـــفٌّ تستردّ الـــذي تعطـــي
تســـاوى على ورد الـــروى كـــل واردٍ
فلـــم يغـــن رب السيـــف عـــن ربـــة القـــرطِ

مولده ونشأته:

ولد لسان الدين ونشأ في غرناطة، وحاز المراتب العليا فقلدّه السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل الوزارة وكان صغير السن فتياً سنة ٧٣٣ هـ، واستعمله في السفارة إلى الملوك، واستنابه بدار ملكه ورمى إليه بخاتمه وسيفه، وائتمنه على صوان حضرته، وبيت ماله، وسجوف حرمه، ومعقل امتناعه، ولما مات السلطان وتسلّم ابنه محمد «الغني بالله» سار الولد على طريقة الوالد وعظّم مكانة ابن الخطيب إلى أن تغلّب إسماعيل على أخيه محمد، واستولى على الأمر

(١) نفح الطيب: ١٨/٥ .

سنة ٧٦٠ هـ، فألقى القبض على لسان الدين، وصادر ممتلكاته، أما السلطان محمد أبو عبد الله، فكان خارج القصر والتجأ إلى وادي آش ومنها إلى المغرب، فسعى مع سلطان المغرب أبي سالم المريني الذي تشفع له وسهّل خروجه من معتقله في الأندلس وأتى به إلى المغرب بصحبة أبي القاسم التلمساني مبعوثه إليه، وعند وصوله، أكرّم السلطان المغربي مثواه، وأرغد نُزله، وأرغد عيش ابن الخطيب في الجراية والإقطاع، ثم استأذن السلطان للتجوال في جهات مراكش، وعندما مر بسلا إثر قفوله من سفره، دخل مقبرة الملوك بشالة، ووقف على قبر السلطان أبي الحسن، وأنشد قصيدة على روي الراء يرثيه ويستجير به في استرجاع ضياعه بغرناطة، مطلعها:

إن بـــان منـــزلـــه وشطّـــت داره
قـــامـــت مقـــام عيـــانـــه أخبـــارهُ

قسّـــم زمـــانـــك عبرةً أو عبرة
هـــذي ثـــراه وهـــذه آثـــاره

فكتب السلطان أبو سالم في ذلك إلى أهل الأندلس بالشفاعة. فشفعّوه، واستقر هو بسلا منتبذاً عن سلطانه طول مقامه بالعدوة، ثم عاد السلطان محمد المخلوع إلى ملكه بالأندلس سنة ٧٦٣ هـ، فاستقدم ابن الخطيب من سلا بالمغرب، وردّه إلى منزلته، وفي سنة ٧٦٤ هـ، داخلت الغيرة قلب لسان الدين من عثمان بن يحيى مقدم بطانة السلطان بالأندلس، فأشار على السلطان أن يتخلص من عثمان فسجنه، وهكذا خلا الجو لابن الخطيب، وانفرد بالحل والعقد وغشي بابه الخاصة والعامة، وقد تفنن أعداؤه في السعايات ضده، حتى تغير الجو بينهما، فاتصل بالسلطان عبد العزيز بن علي المريني في تلمسان،

وأخبره بالرغبة في الالتحاق به والإقامة في كنفه، وهكذا غادر الأندلس سراً، ووصل إلى تلمسان سنة ٧٧٣ هـ، فأكرمه السلطان عبد العزيز، وأرسل إلى غرناطة بطلب أهله وولده فجاؤوه مكرمين واستقر بفاس واشترى ضياعاً. ولم يلبث عبد العزيز أن مات، وخلفه ابنه السعيد بالله، وخلع هذا، فتولى المغرب السلطان المستنصر أحمد بن إبراهيم[1] وقد ساعده «الغني بالله» صاحب غرناطة مشترطاً عليه شروطاً منها أن يسلمه الوزير ابن الخطيب، فقبض عليه المستنصر وكتب بذلك إلى «الغني بالله»، فأرسل الملك الغرناطي هذا وزيره ابن زمرَك إلى فاس، حيث انعقد مجلس للخاصة لمحاكمة ابن الخطيب الذي أحضر فوجهت إليه تهمة الزندقة، وسلوك مذاهب الفلاسفة، واستحصل المجتمعون على فتوى بعض الفقهاء بقتله، وأعيد إلى سجنه، ولكن سرعان ما أرسلوا إليه بعض الأرذال الذين جاؤوا مع ابن زمرك، فدخلوا عليه في سجنه ليلاً وخنقوه ثم دفن في مقبرة «باب المحروق» بفاس، ومن المؤسف أنه في صبيحة اليوم التالي، وجدت جثته فوق القبر، وقد تعرّضت للإحراق فأعيد دفنه، وعد ذلك من صنع سليمان بن داود وزير السلطان أبي العباس المغربي في طنجة، وكان[2] سليمان يحمل في نفسه حقداً دفيناً وقديماً لابن الخطيب. وكانت نهاية لسان الدين سنة ٧٧٦ هـ. ومما قاله[3] في سجنه يتوقع الموت:

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن أبي سالم. نفح الطيب: ٥/ ١٧٧.
(٢) نفح الطيب: ٥/ ١١٠ ــ ١١١.
(٣) نفح الطيب: ٥/ ١١١.

بعُدنا وإن جاورتنا البيوتْ
وجئنا بوعظٍ ونحن صُموتْ
وأنفاسنا سكنتْ دفعةً
كجهر الصلاة تلاه القنوتْ
وكنا عظاماً فصرنا عظاماً
وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماءِ العلا
غربن فناحت علينا السموت
فكم جدّلت ذا الحسام الظبى
وذو البختِ كم جدلته البخوت

لقّب ابن الخطيب بذي الوزارتين: القلم والسيف، ويقال له أيضاً، ذو الميتتين، وذو القبرين، وذو العمرين، لأنه كان يشتغل بالتأليف والكتابة ليلاً، ويقوم على تدبير أمور المملكة نهاراً، ذلك أنه كان مصاباً بداء الأرق، لا ينام من الليل إلا النزر اليسير، وقد قال في كتابه «الوصول لحفظ الصحة في الفصول»: «العجب مني ـ مع تأليفي لهذا الكتاب، الذي لم يؤلف مثله في الطب، وعملي ذلك ـ لا أقدر على مداواة داء الأرق الذي بي»[١].

ويروي[٢] المقري عن ابن حجر عن بعض الأعيان، أن ابن الأحمر وجهّه إلى ملك الإفرنج في رسالة، فلما أراد الرجوع، أخرج له

(١) نفح الطيب: ٥/ ٨٠.
(٢) نفح الطيب: ٥/ ١١٢.

رسالة لابن الخطيب تشتمل على نظم ونثر، فلما قرأها قال له: «مثل هذا كان ينبغي أن لا يُقتل» ثم بكى حتى بلّ ثيابه.

أما مكانته وفضله، فلا ينكرهما أحد، حتى الأعداء، فإن الجميع يعترف له ولأسرته بالعلم والفضل. قال عنه سليل السلاطين الأمير العلامة إسماعيل بن يوسف ابن السلطان القائم بأمر الله محمد بن الأحمر نزيل فاس رحمه الله في كتابه المسمّى بـ«فرائد الجمان فيمن نظمني وإياه الزمان» في حق المذكور ما نصّه: «ذو الوزارتين، الفقيه، الكاتب أبو عبد الله بن محمد الرئيس الفقيه الكاتب المنتزي ببلده لوشة عبد الله ابن الفقيه الكاتب القائد سعيد بن عبد الله ابن الفقيه الصالح ولي الله الخطيب سعيد السلماني اللوشي المعروف بابن الخطيب»[1].

وقال غيره[2]: إن بيتهم يعرف قديماً ببني الوزير، وحديثاً ببني الخطيب، وسعيد جده الأعلى أول من تلقب بالخطيب، وكان من أهل العلم والدين والخير. وكذلك جده الأقرب سعيد، الذي توفي سنة ٦٨٣ هـ. وكذلك أبوه كما أشرنا سابقاً. ومما قيل فيه:

ما نقله المقري في نفح الطيب[3]، عن الباعوني يروي عن ابن خلدون بأنه «كان يكثر من ذكر لسان الدين، ويورد من نظمه ونثره، ما يشنف به الأسماع، وينعقد على استحسانه الإجماع، وتتقاصر عن إدراكه الأطماع».

---

(١) نفح الطيب: ٥/ ٧.
(٢) نفح الطيب: ٥/ ٨.
(٣) نفح الطيب: ٦/ ١٩٢.

ومما يروى عن ذكائه، وسرعة جوابه، وحسن معرفته بالملو
وأحوالهم، وطرائق مخاطبتهم، أنه حضر يوماً بين يدي السلطان أ
عنان في بعض وفاداته عليه لغرض الرسالة، فذُكر بعض أعدائه
فتكلم لسان الدين ما اعتقده في اطراء ذلك العدو، فأنكر بعض
الحاضرين عليه تملقاً للسلطان فقال ابن الخطيب: «أيدّكم الله، تحقي
عدو السلطان بين يديه ليس من السياسة في شيء، بل غير ذلك أح
وأولى، فإن كان السلطان غالب عدوه، كان قد غلب غير حقير، وه
الأولى بفخره وجلالة قدره، وإن غلبه عدوه، لم يغلبه حقير، فيكو
أشد للحسرة، وآكد للفضيحة، فوافق ــ رحمه الله تعالى ــ على ذلك
واستحسنه، وشكر عليه، وخجل المعترض»[١].

أعداؤه:

عندما كان لسان الدين في ذورة مجده، ينعم بالسلطة والجاه،
يجرؤ أحد أن يعكّر عليه، أو ينتقصه ولما انقلبت الأحوال، تكاث
اعداؤه، وتضافروا وأكثروا عليه الكلام، «ونسبوه إلى الزندقـ
والانحلال من ربقة الإسلام بتنقص النبي عليه الصلاة والسلام
والقول بالحلول والاتحاد، والانخراط في سلك الإلحاد، وسلوك
مذاهب الفلاسفة في الاعتقاد، وغير ذلك مما أثاره الحقد والعداو
والانتقاد. مقالات نسبوها إليه خارجة عن السنن السوي، وكلمات
كدروا بها منهل علمه الروي، ولا يدين بها ويفوه إلا الضال الغوي،

---

(١) نفح الطيب: ٥/٧٩.

الظن أن مقامه منها بري»[1] . وكان الذي تولى كِبر محنته وقتله
لميذه أبو عبد الله بن زمرَك، وقد مر أنه كان في مجلس المحاكمة الذي
قد لابن الخطيب في المغرب. ومن أعدائه[2] ، الذين انقلبوا عليه،
مد أن كانوا يطلبون مرضاته، القاضي أبو الحسن بن الحسن النباهي،
وجد في نفسه أن يكون في عداد مساعديه، وظل يضمر له الشر،
يحيك المؤامرات مع ابن زمرك وغيره، حتى قتل لسان الدين، ولعله
ان يتوقع نهاية دولته، وكان أحس انفضاض الإخوان من حوله
قال[3] :

لـــوّن إخـــواني علي وقـــد جنـــت
علي خطـــوبٌ جمـــة ذاتُ ألـــوانِ

رمـــا كنـــت أدري قبـــل أن يتنكـــروا
بـــأن خـــواني كـــان مجمـــع خـــوّاني

كـانـت وقـد حـم القضـاء صنـائعـي
علي بمـــــا لا أرتضي شرّ أعـــــوان

وقد قال هذه الأبيات في نكبته الأولى، عندما غادر هو وسلطانه
لى المغرب، فالحال هي الحال لم تتغير والأعداء لم يكفوا عن الكيد له،
ع العلم أنه لطالما مدحهما وقرّبهما إليه، ومن أنشائه عند تولية ابن
زمرك كتابة السر:

---

(1) نفح الطيب: ٥/١١٨.
(2) نفح الطيب: ٥/١١٩.
(3) نفح الطيب: ٥/١٢٠.

«هذا ظهير كريم، نصب المعتمد به للأمانة الكبرى ببابه فرفعه، وأفرد له متلو العز وجمعه، وأوتره وشفعه، وقرّبه في بساط الملك تقريباً فتح له باب السعادة وشرعه، وأعطاه لواء القلم الأعلى فوجب على مَن دون رتبته من أولي صنعته أن يتبعه»[1].

وعن النباهي قال[2]: «. . . محمود السجية مشكورها، متحلياً بالسكينة حالاً من النزاهة بالمكانة المكينة ساحباً أذيال الصون، بعيداً عن الاتصاف بالفساد من لدن الكون». وعندما ساءت الأحوال بينهما لقبّه بالجعسوس، وألّف فيه كتاباً سمّاه: «خلع الرسن في وصف القاضي ابن الحسن». ومن الجدير بالذكر أن القاضي هذا، كان قدم إلى المغرب من الأندلس، أيام محنة لسان الدين الأولى، وكان القاضي يحمل سجلات فيها اتهامات ضد ابن الخطيب ويريد إمضاء الأحكام فيها، فأبى سلطان المغرب عبد العزيز وردَّه قائلاً[3]: «هلا فعلتم أنتم ذلك حين كان عندكم؟».

أشياخه[4]:

أخذ لسان الدين علومه عن جماعة من أهل العدوة والأندلس منهم:

---

(١) نفح الطيب: ٥/ ١٣٤.
(٢) نفح الطيب: ٥/ ١٣٢.
(٣) نفح الطيب: ٥/ ١١٩.
(٤) أعمال الأعلام: ٣٠٠، ونفح الطيب: ٥/ ١٨٩.

١ ــ أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد الحسني السبتي، قاضي الجماعة، ورئيس العلوم اللسانية في الأندلس، المتوفى سنة ٧٦١ هـ بغرناطة. كان إماماً في الفقه والنحو والعروض. وكانت ولادته سنة ٦٩٧ هـ.

٢ ــ الإمام الرحال، شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن جابر الوادي آشي المولود بتونس سنة ٦٦٧ هـ. وقد سمع بمصر على جماعة وكتب بخطه كثيراً، وله معرفة بالحديث والنحو واللغة والشعر والقراءات. توفي بتونس سنة ٧٧٩ هـ.

٣ ــ ومن أكابر شيوخه: قاضي القضاة أبو عبد الله، محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي القرشي المقري، وقاضي الجماعة بفاس، تلمساني.

وكان مكباً على النظر والدرس والقراءة، يقوم أتم القيام على العربية والفقه والتفسير ويحفظ الحديث، ويتهجر بحفظ التاريخ والأخبار، والآداب، ويشارك مشاركة فاضلة في الأصلين والجدل والمنطق، ويكتب شعراً، ويتكلم في طريقة الصوفية كلام أرباب المقال.

٤ ــ أبو محمد عبد الحق بن سعيد بن محمد، الشيخ الفقيه القاصي بمكناسة.

٥ ــ يونس بن عطية الونشريسي، القاضي بقصر كتامة، وكان له عناية بفروع الفقه، لقيه لسان الدين بمكناسة الزيتون.

٦ ــ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي عفيف، الفقيه الفاضل،

المتصدر لقراءة كتاب الشفاء النبوي، ولديه جملة حسنة من أصول الفقه.

٧ ــ أبو علي عمر بن عثمان الونشريسي، الفقيه المدرك الأستاذ في فن العربية.

٨ ــ أبو جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسي الخباز، من أهل الظرف والانطباع والفضيلة، له مصنف حسن سمّاه «المنهل المورود في شرح المقصد المحمود»، له شعر.

٩ ــ وممن لقيهم في مكناسة القاضي أبو عبد الله بن أبي رمانة وكان من أهل الحياء والحشمة.

ومن أساتذته: المكتِّب الصالح أبو عبد الله بن عبد المولى العواد الذي قرأ عليه القرآن، وقرأه أيضاً على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي، وقرأ عليه العربية وهو أول من انتفع به، وقرأ على الخطيب أبي القاسم بن جزي، كما لازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الشيخ الإمام أبي عبد الله بن الفخار البيري شيخ النحويين لعهده، وقرأ على عبد الله بن بكر قاضي الجماعة، وتأدب بالرئيس أبي الحسن بن الجياب، وروى عن كثير من الأعيان، وأخذ الطب والتعاليم وصناعة التعديل عن أبي زكريا يحيى بن هذيل ولازمه[1]. وقد ذكر المقري غير هؤلاء كثيرين[2].

---

(١) نفح الطيب: ٥/ ٧٥.
(٢) فليراجع ذلك في الجزء ٥ من نفح الطيب.

مؤلفاته:

بلغت تصانيفه نحو ستين[1]، وهو قد فاق أقرانه، من حيث العدد ومن حيث المحتويات. ويقول المقري في ذلك:

تصـــانيـــف الـــوزيـــر ابـــن الخطيـــب
ألـــذ مـــن الصبـــا الغـــض الـــرطيـــبِ
فـــأيـــة راحـــةٍ ونعيـــم عيـــشٍ
تـــوازي كتبـــه أم أي طيـــبِ

وقد ذكر صاحب النفح هذه المؤلفات نقلاً عن «الإحاطة» على الوجه التالي:

- «التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى».
- «الكتيبة الكامنة في أدب المائة الثامنة».
- «الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر».
- «النقابة بعد الكفاية».
- «طرفة العصر في دولة بني نصر»، في أسفار ثلاثة.
- «بستان الدول» ويحتوي على عشر شجرات: شجرة السلطان، ثم شجرة الوزارة، ثم شجرة الكتابة، ثم شجرة القضاء والصلاة، ثم شجرة الشرطة والحسبة، ثم شجرة العمل، ثم شجرة الجهاد وهي فرعان: أسطول، وخيول، ثم شجرة ما

---

(١) نفح الطيب: ٥/ ٩٧.

يضطر باب الملك إليه من الأطباء والمنجمين والبيارزة والبياطرة والفلاحين والندماء والشطرنجيين والشعراء والمغنين، ثم شجرة الرعايا.

ـ «الصيّب والجهام والماضي والكهام»، وهو ديوان شعري في سفرين. ونثره في غرض السلطانيات كثير.

ـ «اليوسفي في صناعة الطب»، في سفرين كبيرين.

ـ «عائد الصلة»، في سفرين.

ـ «الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة»، في تسعة أسفار.

ـ «تخليص الذهب في اختيار عيون الكتب الأدبيات الثلاثة».

ـ «جيش التوشيح»، في سفرين.

ـ «نفاضة الجراب في علالة الاغتراب»، في أربعة أسفار.

ـ «عمل من طب لمن حب»، في الطب.

ـ «رقم الحلل في نظم الدول»، من الأراجيز.

ـ «الحلل المرقومة في اللمع المنظومة»، ألفية في أصول الفقه.

ـ «المعلومة»، أرجوزة في الطب.

ـ «المعتمدة في الأغذية المفردة»، أرجوزة.

ـ «السياسة المدنية»، أرجوزة.

ـ «في عمل الترياق الفاروقي».

ـ «الكلام على الطاعون المعاصر».

ـ «الإشارة».

ـ «قطع السلوك».

ـ «مثلى الطريقة في ذم الوثيقة».

ومن الكتب التي ذكر المقري اسماءها ولم ينقلها عن الإحاطة:

ـ «ريحانة الكتّاب ونُجعة المنتاب»، في عدة مجلدات، في النثر.
ـ «نثير فرائد الجمان فيمن نظمني وإياه الزمان».
ـ «روضة التعريف بالحب الشريف». وقد عارض فيه «ديوان الصبابة» لابن أبي حجلة صاحب «السكردان» وضمنه من التصوف وعبارات أهله العجب العجاب، تكلم فيه على طريقة أهل الوحدة المطلقة، وبذلك سجّل عليه أعداؤه في نكبته الآخرة التي ذهبت فيها نفسه ونسبوه إلى مذهب الحلول وغيره.
ـ «اللمحة البدرية في الدولة النصرية».
ـ «السحر والشعر».
ـ «معيار الأخبار».
ـ «مفاضلة مالقة وسلا».
ـ «خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف».
ـ «المسائل الطبية» في مجلد.
ـ «الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة».
ـ «تكوّن الجنين».
ـ «الوصول لحفظ الصحة في الفصول».
ـ «الوزارة».
ـ «مقامة السياسة».
ـ «الغيرة على أهل الحيرة».
ـ «حمل الجمهور على السنن المشهورة».
ـ «الزبدة الممخوضة».
ـ «الرد على أهل الإباحة».
ـ «سد الذريعة في تفضيل الشريعة».

- «تقرير الشبه وتحرير الشبه».
- «استنزال اللطف الموجود في سر الوجود».
- «أبيات الأبيات»، مختارات من مطالع قصائده.
- «فتات الخوان ولقط الصوان».
- «كناسة الدكان بعد انتقال السكان».
- «الدرر الفاخرة، واللجج الزاخرة»، جمع فيه نظم ابن صفوان.
- «أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام».
- «المباخر الطيبية في المفاخر الخطيبية»: ألفه للسلطان عبد العزيز في المغرب، يذكر فيه نباهة سلفه، وما لهم من المجد.
- «خلع الرسن في أمر القاضي ابن الحسن»[1].
- «وتدوين شعر شيخه ابن الجياب»، وجمع نثره وسمّاه: «تافه من جم ونقطة من يم».
- «شرح لكتابه رقم الحلل في نظم الدول».
- «البيزرة»، في مجلد.
- «البيطرة» في مجلد جامع مع حول الخيل.
- «رجز الأصول».

---

(١) القاضي ابن الحسن النباهي، والكتاب أعلاه ألّفه في مساوىء النباهي للسلطان عبد العزيز في المغرب، لكون ابن الحسن هذا تولى كبر الحط منه وقد سعى في هلاكه، وقال عن الكتاب كما في النفح: «إنه لا شيء فوقه في الظرف والاستطراف، يسلي الثكالى» (نفح الطيب: ٥/ ١٨١).

نبذة عن كتابه: «الإحاطة بتاريخ غرناطة»[1].

ألّف هذا الكتاب في مآثر الدولة النصرية، وفي حضرتها غرناطة، وتحدث فيه عن ملوكها ووزرائها وكتابها وقوادها، وعلمائها، وأهل الشرف والرتب، وكل ما يتعلق بالمملكة من «حصانة قلعتها، وأصالة منعتها، وقديم اختطاطها، وكريم جهادها ورباطها، وحسن ترتيبها ووضعها». وكان لسان الدين قد وضع الكتاب في ثمانية أجزاء، وأرسل منه نسخة إلى مصر ــ في حياته ــ ووقفها على أهل العلم وجعل مقرها بخانقاه سعيد السعداء وذلك عام ٧٦٧ هـ، وقفاً شرعياً على جميع المسلمين ينتفعون به قراءة ونسخاً ومطالعة، وكان طلب[2] من الفقيه العمدة معلم الجملة أبي عبد الله الشريشي، أن ينقل الكتاب من المبيضات، ففعل وأتم الكتاب على ستة مجلدات، ولما عاد ابن الخطيب إلى الأندلس سنة ٧٦٣ هـ ألحق بالكتاب بعض الزيادات، حتى بلغ الكتاب ثمانية مجلدات.

أولاده:

هم ثلاثة[3]: عبد الله ومحمد، وعلي، وقد حدثوا جميعاً عن والدهم وعن ابن الجياب.

---

(١) نفح الطيب: ٧/ ١٠٢.
(٢) نفح الطيب: ٧/ ١٠٨ والخبر عن ابن الأحمر ويقول إن الكتاب تم في الأندلس على أثني عشر جزءاً.
(٣) نفح الطيب: ٧/ ٢٨٩.

أما محمد فقد كان متصوفاً، ولم يعمل في خدمة الملوك، على خلاف أخيه عبد الله، الذي كتب بالعدوتين، لملوك الحضرتين، وتولى القيادة والكتابة بالأندلس، أيام كان أبوه مدبر الدولة، وكان عبد الله هذا حسن الشكل، جيد الفهم، يغطي منه رماد السكون جمرة الحركة، كما كان منقبضاً عن الناس قليل البشاشة، حسن الخط، وسط النظم، كتب عن الأمراء بالمغرب، وأنشدهم واقتضى صكوكهم بالإقطاعات والإحسان، واختال في خِلَعهم، ثم لما كانت الفتنة كتب عن سلطان وطنه معزز الخطة بالقيادة، قرأ على قاضي الجماعة الخطيب أبي القاسم الحسني وعلى الفرج بن لب، واستظهر بعض مبادىء العربية، واستجيز له من أدركه ميلاده من أهل المشرق والمغرب. وشعره حسن. كان مولده بغرناطة سنة ٧٤٣ هـ.

ومما خاطب به لسان الدين أولاده:

يا بني عبد الإله احتساباً
عن أثاثٍ ومنزلٍ وعقارِ
كيف يأس على خسارة جزء
مَن يرى الكل في سبيل الخسار

أما علي بن لسان الدين، المكنى أبو الحسن، فإنه أخذ العلم عن أبيه وعن ابن الجياب وابن مرزوق والشريف السبتي وعالم المغرب أبي عبد الله محمد المقري وروى عن غير هؤلاء. وكان علي هذا نديم السلطان وخاصته من نصائحه قوله على لسان السلطان: «ومن المنقول عن الملل، والمشهور في الأواخر والأول، أن المعصية إذا فشت في قوم أحاط بهم سوء كسبهم، وأظلم ما بينهم وبين ربهم، وانقطعت عنهم

الرحمات، وانقطعت فيهم المثلات والنقمات، وشحّت السماء، وغيض الماء، واستولت الأعداء، وانتشر الداء، وجفّت الضروع، وأخلفت الرضوع»[1].

تلاميذه:

وكانوا كثيرين، ولكن لم يحفظ الكل العهد، فكثير منهم ناصبه العداء واجتهد في ايذائه. ومن أشهر هؤلاء الوزير الكاتب أبو عبد الله بن زمرك[2]، الذي ورث مرتبة أستاذه من بعده، وكان له في الفنون المختلفة من لغة وآداب وأخبار وسير وتفسير، إلى جانب اجتهاد وتصوف ورحلة، وله شعر جيد، ومنه قوله في الزهر[3]:

يقر بعيني أن أرى الزهر يانعاً
وقد نازع المحبوبَ في الحسن وصفَهُ
وما أبصرت عيني كزهر قرنفل
حكى خدّ من يسبي الفؤاد وعرفَهُ
تمنع في أعلى الهضاب لمجتنٍ
تمنعه مني إذا رمتُ إلفَه

---

(١) نفح الطيب: ٧/ ٣٧٧ و٣٧٩.
(٢) هو محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحي، ولد سنة ٧٣٣ هـ في ربض البيازين من غرناطة، وفيها نشأ. وتوفي بعد سنة ٧٩٥ هـ. وهو الذي دبّر مقتل أستاذه ابن الخطيب كما مر. نفح الطيب: ٧/ ١٤٥ وما بعد.
(٣) نفح الطيب: ٧/ ١٧٧.

ومن تلامذته الطبيب العالم ابن المهنا شارح ألفية ابن سينا[1] .

ومن تلامذته: ابن جزي الكلبي[2] .

ومنهم أبو عبد الله الشريشي[3] . مؤدب أولاد الملوك ومعلمهم القرآن والسنة النبوية، وهو الذي نقل كتاب «الإحاطة» من مبيضته وأحكم النسخة. ومنهم:

أبو محمد عطية بن يحيى[4] (٧٠٩ هـ ــ ؟).

وله شعر جيد منه قوله في مدح لسان الدين:

يــا سيــداً فــاق في مجــدٍ وفي شرفٍ
وفــات سبقــاً بفضــل الــذاتِ والسلــفِ

ومعــدنــاً لنفيــس الــدر فهــو لمــا
حــواه منــه لــدى التشبيــه كــالصــدفِ

---

(١) وألفية ابن سينا هي أرجوزته المعروفة في الطب. وشرحه عليها من أحسن الشروح. نفح الطيب: ٧/ ٢٨١.

(٢) أبو بكر ابن الشيخ أبي القاسم بن جزي، شيخ لسان الدين وقد تقدمت ترجمته، وقد روى أبو بكر كثيرا عن أستاذه لسان الدين وجمع مؤلفاته.

(٣) نفح الطيب: ٧/ ٢٨٢.

(٤) القاضي الكاتب، عطية بن يحيى بن عبد الله بن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربي، قال عنه لسان الدين في الإحاطة: «صاحبنا الفقيه الخطيب، كاتب الانشاء بالباب السلطاني. . . بارع الخط، جيد القريحة سيّال المداد، نشيط البنان، خطيب ناظم ناشر. (نفح الطيب: ٧/ ٢٨٢).

ما أنت إلا وحيدُ العصر في شيَمٍ
وفي ذكاء وفي علمٍ وفي ظرفِ
يا صاحب القلم الأعلى الذي جمعتْ
فيه المعالي فبعض البعض لم أصفِ

ومن تلامذته الذين ذكرهم المقري[1] : أحمد بن سليمان بن فركون.

---

(١) نفح الطيب: ٧/ ٢٨٧.

الفصل الثالث
شعره وموشحاته

أولًا: الشعر:

ترك لسان الدين مجموعة شعرية ضخمة، بثها في مؤلفاته الستين، وقد اختار ما استحسنه، في الأغراض المختلفة وجمعه في كتاب سمّاه «أبيات الأبيات»، وتمثل هذه الأبيات مطالع قصائده. وإن من يتتبع هذه القصائد يجد شعراً في نهاية الحسن والجودة، فيه من العذوبة والأناقة ما يرفعه إلى مستوى شعراء المشرق المبرزين، ولا سيما أنه نظم في الفنون الشعرية المختلفة؛ التقليدية منها والمستحدثة؛ كالمدح والذم والعتاب والزهد والوصف والرثاء والعزاء والتشبيب والألغاز والمواعظ والحكم والشعر التعليمي. أما الفنون المستحدثة فيأتي على رأسها الموشح وقد ضرب لسان الدين منه بسهم وافر. وسنحاول فيما يلي أن ندرس بعض أشعاره من حيث خصائصها وأغراضها.

المدح:

مدح لسان الدين العظماء من السلاطين والملوك، كما مدح النبي ﷺ مدحاً صادقاً، ففي مدحه النبوي توكأ على المعاني المألوفة في المدح، فهو يعبر عن شوق لزيارة القبر الشريف فيرسل التحية عبر الأثير ليقول[1] :

هــل كنــت تعلــم في هبــوب الــريــح
نفســـاً يـــؤجـــج لاعـــج التبريـــحِ
اهـــدتـــك مـــن شيـــح الحجـــاز تحيـــةً
فـــاحـــتْ لهـــا عـــرضَ الفجـــاج الفيـــح . .
حسبـــي ولـــوعـــاً أن أزور بفكـــرتي
زوارهـــا والجســـم رهـــن نـــزوح
فـــأبـــث فيهـــا مـــن حـــديـــث صبـــابتـــي
وأحـــث فيهـــا مـــن جنـــاح جنـــوحـــي

ثـم يتحسر على عمـر أمضـاه في الترهـات، ويتمنـى أن يقطـع الغلوات، ويجد السير والسرى ليصل إلى الحجاز شوقاً للحبيب ﷺ فهناك تطمئن نفس الشاعر وتهدأ. ومن الواضح استخدامه لكلمات تقليديةَ ترتبط بصور من البادية يقول[2] :

---

(١) نفح الطيب: ٦/ ٤٤٩.
(٢) نفح الطيب: ٦/ ٤٥٠.

لهفي على عمر مضى أنضيته
في ملعبٍ للترهات فسيحِ
يا زاجر الوجناء يعتسف الفلا
والليل يعثر في فضول مُسُوحِ
يصل السُّرى سبقاً إلى خير الورى
والركب بين موسَّد وطريحِ

وقال في قصيدة أنشدها أبا سالم ملك المغرب سنة ٧٦٣ هـ في المولد النبوي[1] :

تألقَ نجدياً فأذكرني نجدا
وهاج بي الشوق المبرح والوجدا
وميض رأى بُرد الغمامة مغفلاً
فمدّ يداً بالتبر أعلمتِ البردا
سقى الله نجداً ما نضحت بذكَرها
على كبدي إلا وجدت لها بَردا
وآنس قلبي فهو للعهد حافظ
وقِلّ على الأيام من يحفظ العهدا
لي الله كم أَهذي بنجدٍ وحاجرٍ
وأكني بدعدٍ في غرامي أو سعدى
وقل يا رسول الله عبد تقاصرت
خطاه وأضحى من أحبته فردا

(١) نفح الطِّيب: ٦/ ٤٥١.

تقــدمــت مختـــاراً، تـــأخــرت مبعثــا
فقــد شملــت عليــاؤك القبــل والبعــدا
فمـــاذا عســـى يثنـــي عليـــك مقصر
ولم يــأل فيـك الـذكـر مـدحـاً ولا حمـدا

ألا ليــت شعــري هــل أراني نـــاهــداً
أقــود القــلاص البــدن والضــامــر النهــدا
لـــولـــدك اهتــز الـــوجــود فـــأشرقــت
قصــور ببصرى ضــاءت الهضــب والـوهـدا

هذه الأبيات، كما الأبيات السابقة، يبدي فيها أشواقه لزيارة النبي ﷺ، ثم يعبر عن تقصير الكلمات في التعبير عما في نفسه، وهي عاجزة أصلاً من بلوغ ما يحيط بشخصية النبي من الرفعة والسمو. أما من حيث الشكل فإن الشاعر يسير على طريقة غيره في الافتتاحية بالحنين إلى نجد تارة وإلى الحجاز تارة أخرى. ثم يستسقي، كعادة أسلافه من المشرقيين وغيرهم، لنجد دلالة على شوقه وحبه، ولا يسعه هنا إلا أن يأتي على ذكر دعد وسعدى، كناية عن غرامه وهيامه لزيارة تلك الديار، وينتهي إلى طلب الاستعجال في الرحيل بذكر النياق القوية والخيول الضامرة التي تساعده لبلوغ مقصده.

وفي قصيدة[1] أخرى خاطب فيها السلطان الملك الكبير، العالم أبا عنان، تراه حزيناً كئيباً، وكأنه ينعى نفسه، يتضجر من الحال ومن

---

(١) نفح الطيب: ٦/ ٤٥٥.

الدهر وما هو فيه، وهو يتمنى العودة إلى أيام الصبا ولكن الواقع يمنع من ذلك فيقول في بداية القصيدة:

أبـــدى لـــداعـــي الفـــوز وجـــه منيـــب
وأفـــاق مـــن عـــذلٍ ومـــن تـــأنيـــبِ

كلـــف الجنـــان إذا جـــرى ذكـــر الحمـــى
والبـــان حـــن لـــه حنينَ النيـــب

والنفـــس لا تنفـــك تكلـــف بـــالهـــوى
والشيـــب يلحظهـــا بعين رقيـــب

أتـــرى التغـــزل بعـــد أن ظعـــن الصبـــا
شـــأني الغـــداة أو النسيـــب نسيبـــي...

فكـــل الأمـــورَ إذا اعترتـــك لـــربهـــا
مـــا ضـــاق لطـــف الـــرب عـــن مـــربـــوبِ

مـــن رام نيـــلَ الشيء قبـــل أوانـــه
رام انتقـــال يلملـــمٍ وعسيـــبِ[1]

إذاً، هو لم يفتتح بمطلع غزلي أو حكمي على عادة التقليديين، بل تهرّب من ذلك بحجة ما هو فيه من تقدم في السن ومن سوء الحال، فعبرّ عن مأساته مع الناس والزمن، وخرج بمجموعة من الحكم والمواعظ، منها البيتان الأخيران في ما أثبتناه أعلاه، إذ يدعو للاتكال على الله وإلى عدم التسرع والتعجل في طلب المراد، ليتخلص بعد ذلك

---

(١) يلملم وعسيب: جبلان في بلاد نجد.

إلى المدح[1]:

بخليفة الله الذي في كفّه
غيث يروض ساح كل جديبِ

المنتقى من طينة المجد الذي
ما كان يوماً صرفُه بمشوبِ

ويرى الحقائق من وراء احجابها
لا فرق بين شهادةٍ ومغيب

أسد الشرى سُرُج الورى فمقامهم
لله بين محاربٍ وحروبِ

تروي العوالي والمعالي عنهم
أثر الندى المولود والمكسوب

جاءوا كما اتسق الحساب أصالةً
وغدا فذلك ذلك المكتوب

متجسداً من جوهر النور الذي
لم تُرم يوماً شمسه بغروب

فرأيت أمن الله في ظل التقى
والعدل تحت سرادقٍ مضروب

ورأيت سيف الله مطرور الشبا
يمضي القضاء بحده المرهوب[2]

---

(١) الأبيات في نفح الطيب: ٦/٤٥٦، نقلاً عن «أبيات الأبيات» و«الصيب والجهام».
(٢) شبا السيف: حده.

ووردت بحر العلم يقذف موجه
للناس من درر الهدى بضروب

وشهادة الإخلاص توجب رجعتي
لنعيمها من غير مس لغوب

يا ناصر الدين الحنيف وأهله
أنضاء مسغبة وفل خطوب

نادتك أندلس ومجدك ضامن
أن لا يخيب لديك ذو مطلوب

والروم فارم بكل نجم ثاقب
يذكي بأربعها شواظ لهيب

لكأنني بك قد تركت ربوعها
قفراً بكرّ الغزو والتعقيب

جعل الإله البيت منك مثابةً
للعاكفين وأنت خيرُ مثيبِ

من لم يدِنْ لله فيك بقربةٍ
هو من جناب الله غيرُ قريب

يبدو أن الشاعر، ومرةً أخرى، يحذو حذو المشرقيين، في الصور والمعاني، فكف الخليفة غيث، وسيفه قاطع، وهو من قوم شجعان أسود، وممدوحه ماض في عزيمته، يرى الأشياء من وراء الحجب،

ويذكرنا ذلك بقول المتنبي:

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً
مضى قبل أن تُلقى عليه الجوازم

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى
إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

وينتهي بعد ذلك إلى الاستغاثة به، ويستحثه أن يهب لتخليص الأندلس مما هي فيه، ويدحر الروم وغيرهم حتى يصير التقرب إليه من الدين. وخلاصة القول، إن هذه المعاني تقليدية مألوفة، إلا أنها لا تخلو من جديد بإدخال معنى فلسفي: «متجسداً من جوهر النور...»، وكذلك صورة البحر فإنه استخدمها مقرونة بالعلم فالبحر عنده يقذف درر الهدى، وليس اللؤلؤ كما هو المألوف، ولكن البحر ما زال رمزاً للعطاء على كل حال. ومن ناحية الشكل تلاحظ بعض الصور البديعية «العوالي والمعالي»، «محارب وحروب»، والطباق في قوله: «شهادة ومغيب»، «مولود ومكسوب» «قربه وغير قريب»، هذه الصور، بمعظمها غير متكلفة، بل جاءت عفوية، والأبيات غنية بالصور البيانية الموفقة «في كفه غيث»، «طينة المجد»، «سُرُوج الورى»، «الندى المولود»، «بحر العلم»، نادتك أندلس»، مما أكسب القصيدة إجمالاً رونقاً وخفة، وقد ساهم الصدق العاطفي، في قوة تأثيرها، لأن الشاعر لم يكن يطلب مالاً أو ينتظر قضاء غرضٍ من أغراضه الزائلة، بل كان يرى في ملك المغرب منقذاً حقيقياً لما تتخبط به بلاد الأندلس، فيتوجه إليه مخلصاً في دعوته لينصر الإسلام والمسلمين، وعلى سنن المشارقة، يعتبر أن الدافع الديني هو الأساس، ولهذا السبب أكثر من الإضافات إلى لفظة الجلالة: «خليفة الله،

فمقامهم لله، أمن الله، سيف الله، جعل الإله البيت، لم يدِن لله، جناب الله». كل ذلك يعكس عاطفة لسان الدين الدينية بالإضافة إلى عاطفته الوطنية نحو أهله وبلده ومجد بني قومه.

وتراه يقتفي أثر الفرزدق في المعاني المدحية فيقول[1]:

يا ناصر الدين لما قل ناصره
ومطلع الجود في الدنيا وقد أفلا

لولا التشهدُ والترداد منك له
لم يسمعِ الناس يوماً من لسانك لا

ومن المعاني الحسنة في المدح، وقد جمع بين الوضاءة والشجاعة في صورة واحدة:

وإن نظرتَ إلى لألاء غرته
يوم الهياج رأيت الشمس في الأسد

ومن المعاني التقليدية في الجود والعطاء أن يشبه الكريم بالغمام والقطر، وقد أخذ لسان الدين هذا المعنى وأدخله في صورة جديدة قوامها عطاء الكف، ووضاءة الوجه عند العطاء وصورة القطر في

(١) نفح الطيب: ٦/٤٦٨.
انظر قصيدة الفرزدق في مدح زين العابدين ولا سيما قوله:
ما قال لا قط إلا في تشهده
لولا التشهد كانت لاءه نعم

غياب الغمام، يقول[1]:

عجبـاً لـراحتـك الملثـة بـالنـدى
أن لا تكـون على الغمـام غمـامـا
يهمـي ووجهـك نـوره متـألـقٌ
والقطـرُ إن سحـب السحـاب أغـامـا

ومن قصيدة مدح بها الغني بالله محمداً عند عودته من المغرب إلى الأندلس وقد سمّاها: «المنح الغريب في الفتح القريب»[2]:

الحـق يعلـو والأبـاطـل تسفـل
والله عـن أحكـامـه لا يُسـألُ
وإذا استحـالـت حـالـة وتبـدّلـت
فـالله عـزّ وجـلّ لا يتبـدل
أمحمـد والحمـد منـك سجيـةٌ
بحليهـا دون الـورى تتجمّـل
ولـك السجـايـا الغـر والشيَـم التـي
بغـريبهـا يتمثـل المتمثـل
والبحـر قـد حنيـت عليـك ضلـوعـه
والـريـح تقطـع للـزفير وتـرسـلُ

(١) نفح الطيب: ٦/ ٤٦٧.
(٢) نفح الطيب: ٦/ ٤٧٨. أزهار الرياض: ١/ ٢٦٢.
وهذه القصيدة، يذكر المقري، عندما أوردها، أن السلطان محمداً قد أمر بكتابة أبيات القصيدة على جدران قصر الحكم بغرناطة أي قصر الحمراء.

يبدأ القصيدة بحكمة بليغة مستمدة من عقيدة التوحيد، فالحق لا بد أن يسود ولا بد للأمور أن توضع في نصابها، والله يفعل ما يريد ولا يُسأل عما يفعل، ينتقل إلى مدح سلطانه الذي جمع له في أبياته هذه كل السجايا والشيم الكريمة، فهو لا يبارى في المكرمات لدرجة أنه يطلب منه أن يتعوذ قائلاً له:

عـوِّذ كمـالـك مـا استطعـت فـإنـه
قـد تنقـص الأشيـاء ممـا تكمـلُ
والله قـد ولاّك أمـر عبـاده
لمـا ارتضـى بـك قيّمـا لا تعـزل

وبالنظر إلى كماله وجميل صفاته، فإن الله قد ارتضاه قيماً على أمور الأندلس وأعاده إلى ملكه عزيزاً كما كان وفي مثل هذا القول دلالة على تأثر الشاعر بالمشرقيين، في الدفاع عن حقوق الحاكمين، فإذا أراد أحدهم أن يثبت حاكماً يدّعي له الأولوية والأفضلية في السجايا الكريمة وفي الدين والأخلاق، ويزعم كل شاعر من شعراء السياسة، كما فعل لسان الدين هنا، بأن سلطانه قد أعطي حقاً من عند الله، وتأيد بنصره على أعدائه، ومن يكن كذلك شأنه فلا يقف في طريقه أحد. والجزء الأخير من القصيدة يتناول فيه الشاعر استعراض القوى، فيتحدث عن الجياد فيصفها:

مـن كـل منجـرد أغـرّ محجّـل
يـرمـي الجـلادَ بـه أغـرّ محجّـلُ
زجِـل الجنـاح إذا أجـدّ لغـايـةٍ
وإذا تغنـى للصهيـل فبلبـل

يبالغ في تعظيم قوة الخيول فهي سريعة قوية تنقض كالصواعق، وكأن الفرس هيكل يتحرك:

فكـــأنمـــا هـــو صـــورة في هيكـــلٍ
مـــن لطفـــه وكـــأنمـــا هـــو هيكـــلُ

ومنها قوله:

لله قـــومـــك عنـــد مشتجـــر القنـــا
إذ ثـــوّب الـــداعـــي المهيـــب وأقبلـــوا
قـــوم إذا لفـــح الهجير وجـــوههـــم
حجبـــوا بـــرايـــات الجهـــاد وظللـــوا

ومن مدائحه التي طارت في الآفاق، وحازت قصب السبق سينيته[1] الشهيرة التي قالها في مدح السلطان أبي حمّو موسى بن يوسف، سلطان تلمسان، وحذا فيها حذو أبي تمام في قصيدته التي أولها:

أقشيـــبَ ربعهـــمُ أراكَ دريســـا
تقـــري ضيـــوفـــك لـــوعـــةً ورسيســـا

وكان لسان الدين افتتح القصيدة بمطلع غزلي من عدة أبيات أولها قوله:

أطلعـــن في سُـــدَف الفـــروع شمـــوســـا
ضحـــك الظـــلام لهـــا وكـــان عبـــوســـا

(١) الأبيات كاملة في نفح الطيب: ٦/ ١٩٥.

وعطفــن قضبــاً للقــدود نــواعمــا
بُــوّئــن أدواح النعيــم غُــروســا. . .

ثم ينتقل إلى التأمل في أبيات قليلة منها قوله:

وسجيــة الإنســانِ ليــس بنــاصــلٍ
مــن صبغهــا حتــى يُــرى مــرمــوســا
يغتر مهمــا ســاعــدت آمــالــه
فــإذا عــراهُ الخطــبُ كــان يــؤوســا

ويخلص بعد ذلك إلى المدح، ومما قاله:

بحمــى أبي حمّــو حططــت ركــائبــي
لمــا اختبرت الليــث والعــرّيســا
أســد الهيــاج إذا خطــا قُــدُمــاً سطــا
فتخلّــف الأســد الهــزبــر فــريســا
غيــث النــوال إذا الغمــام حلــوبــةٌ
مَثلَــت بــأيــدي الحــالبين بســوســا
جمــع النــدى والبــأس والشيَــم العــلا
والســؤدد المتــواتــر القــدمــوســا

ويلاحظ أن الشاعر لم يخرج عن سنن الأقدمين المشرقيين، من حيث الشكل ومن حيث المضمون، فمن حيث الشكل، افتتح، كما أشرنـا، بمطلـع غـزلي، كمـا أنـه حـافـظ على التسلسـل في الأفكـار والقصيدة يسيطر عليها نغم موسيقي من خلال الألفاظ العذبة السهلة من جهة، ومن خلال قافية السين التي اضفت على الأبيات نفساً حزيناً أراده الشاعر ليعبر عن مأساة نفسه، والأبيات تشتمل على

ألفاظ بدوية بالإضافة إلى الألفاظ المستمدة من البيئة الدينية والفكرية التي تأثر بها ابن الخطيب، فمن ألفاظه البدوية: (الجرد العتاق، البسوس، أسد الهياج، السعد، مرموس)، ومن الألفاظ الدينية: (طغى فرعونه، عُذت بموسى، اليمين، فطر الإله، ذرء الخلق، الملائك، ثغر الله، ارتضاه الله) وغير ذلك كتكرار اسم الجلالة في مواضع أخرى.

أما من حيث المعاني فليس فيها من التجديد إلا في الإخراج لأن الشاعر قد قلّد أبا تمّام إلى حد بعيد.

ومن أجود مدائحه، مقطوعة قالها في سفارة له إلى المغرب للغني بالله محمد سلطان الأندلس، وكان سلطان المغرب يومذاك أبو عنان، فلما قدم ابن الخطيب عليه، تقدم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها، واستأذنه في إنشاد شعر قدمه بين يديه، فأنشد وهو قائم[1]:

خليفة الله ساعد القدر
عُلاك ما لاح في الدجى قمر

ودافعت عنك كف قدرته
ما ليس يستطيع دفعه البشر

وجهك في النائبات بدرُ دجىً
لنا وفي المحل كفك المطر

(١) الأبيات والخبر في نفح الطيب: ٥/ ٩٨.

والنـاس طـراً بـأرض أنـدلـس
لـولاك مـا أوطنـوا ولا عمـروا
وجملـة الأمـر أنـه وطـنٌ
في غير عليـاك مـا لـه وطـر
ومـن بـه مـذ وصلـت حبلهـم
مـا جحـدوا نعمـةً ولا كفـروا
وقـد أهمتهـم بـأنفسهـم
فـوجهـوني إليـك وانتظـروا

وقد اهتز السلطان لهذه الأبيات، وأذن له بالجلوس، وقال له قبل أن يجلس: «ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم»، ثم أثقل كاهلهم بالإحسان وردهم بجميع ما طلبوه، وقال القاضي أبو القاسم الشريف وهو أحد شيوخ لسان الدين وكان معه في الوفد: لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا.

الهجاء:

كان بارعاً في القدح والذم، كما كان يجيد المدح تماماً. وقد بلغ في هجائه حد الإقذاع إلى حد لا يحتمله أحد، «وهو أشد من وقع النبال» كما قال المقري[1] سواء في الشعر أو في النثر.

يقول من قصيدة يهجو فيها الوزير إبراهيم بن أبي الفتح[2]:

---

(١) نفح الطيب ٥/ ١٣٨.
(٢) وكان استوزره السلطان إسماعيل بن الأحمر الذي ثار على أخيه محمد الغني ووزيره ابن الخطيب سنة ٧٦٠ هـ.

كـــن مـــن صروف الـــردى على حـــذر

لا يقبـــلُ الـــدهـــرُ عُـــذرَ معتـــذرِ

ولا تعـــــوّل فيـــــه على دعـــــةٍ

فـــأنـــت في قُلعـــةٍ وفي سفـــرِ

قـــل للـــوزيـــر البليـــد قـــد ركضـــتْ

في ربعـــــك اليـــــوم غـــــارةُ الغِيَرِ

يـــا بـــنِ أبي الفتـــح نسبـــةً عُكســـتْ

فـــلا بفتـــح أتـــتْ ولا ظفـــر

بـــــات لـــــه المشتري عَلى غيرَ

وأحـــرقـــت فيـــه قـــرصـــة القمـــر

يـــا مفـــرط الجهـــل والغبـــاوة لا

يُحسَـــب إلا مـــن جملـــةِ البقـــر

قد بدأ القصيدة بحكمة وموعظة، فلا ينبغي للمرء أن يطمئن، وينتقل إلى الهجاء مباشرة، فيتّهم المهجو بالجهل والغباوة، إلى حد إخراجه من جملة البشر، وهو بزعم ابن الخطيب، حاقد، فظ، حسود، شرير، وهو وعاء ملىء قذارة، وهو قليل الخير بعيد عن المروءة والمكارم، ناقص الدين، ولا يكتفي بثلبه بل يتجاوز إلى الطعن في نسبه وفي ذويه وقومه:

يـــا خـــامـــلاً جـــاهُـــه الفـــروجُ يـــرى

قهـــر أولي الجـــاه فخـــر مفتخـــرِ

كـــانـــوا نبيطـــاً في الأصـــل أو حبشـــاً

مـــــا عنـــــده عبرةٌ بمعتبرِ

يــا نــاقــص الــديــن والمــروءة والعقـ
ل ومجــري اللســان بــالهــذر

إن الناظر في هذه الأبيات، لا يسعه إلا أن يندهش لصدور مثل هذا الكلام عن رجل بمنزلة ابن الخطيب علماً ومكانة سياسية واجتماعية، فمهجوه بليد مشؤوم، منحوس ونحس، وهو بقرة ثم ولد السحق، ثم بغل يدور بطاحونة ثم هو أقل من الكلاب على حد زعمه:

ومَــن أبــو الفتــح في الكــلاب وهــل
لجــاهــل في الأنــام مــن خطــرِ

وقد مزج في هجائه بين التيارات المختلفة في الهجاء، إذ تناول المقابح المادية والمعنوية في المهجو، وضخمها، ثم أفحش وعلى طريقة ابن الرومي في الشتم والتحقير، حتى غدا أبو الفتح أضحوكة بين الناس، وليس لقارىء هذه الأبيات إلا أن يتقزز ممن تكون أوصافه كما ورد على لسان الشاعر، وفي الوقت ذاته يتقزز من هذه الطريقة التي لا تخلو من المبالغة والتسفل إلى حد الافتراء واصطناع الكذب المعيب.

وهو القائل[1] على سبيل التورية في شأن السلطان الذي ثار وذهب:

بــإسمــاعيــل ثــم أخيــه قيــس
تــأذن ليــلُ همــي بــانبــلاجِ

(١) نفح الطيب: ٥/ ١٤٢. وفي أزهار الرياض: ١/ ٢٧٤.

دم الأخـــويـــن داوى جـــرح قلبـــي
وعـــالجنـــي وحسبـــكَ مـــن عـــلاج

وقال[1] يهجو بعض أهل سلا:

أهـــل ســـلا صـــاحـــت بهـــم صـــائحـــه
غـــاديـــةٌ في دورهـــمْ رائحـــهْ
يكفيهـــمُ مـــن عـــوزٍ أنهـــم
ريحـــانُهـــم ليســـتْ لـــه رائحـــهْ

الوصف:

اعتمد الشعراء الأندلسيون على عدة مقومات في التعبير عن المحسوسات؛ منها الجمال الطبيعي، واعتدال المناخ، والحرية والثراء وحياة الترف التي عاشها كثير منهم خصوصاً أهل الحكم، في قصورهم وبساتينهم، ودورهم التي امتلأت بالجواري الحسناوات، بالإضافة إلى كل ذلك، فقد ظل الأندلسي يتطلع إلى المشرق، ويقلد ويحذو حذو أسلافه من كبار الشعراء في الوصف وغيره، وابن الخطيب، كغيره من شعراء الأندلس، شغف بالطبيعة، ومزج بينها وبين هواه وميوله، فهي عندهم جميعاً مبعث للذة والمتعة، ولا يحلو السمر إلا بين أحضان تلك الطبيعة الساحرة، يقول[2]:

---

(١) نفح الطيب: ٦/ ٢٧٨.
(٢) نفح الطيب: ٦/ ٤٧١.

كأنمـــا الـــــــروض ملـــــك
بــــاهــــى بـــه جُلســـــاه
يـــرضـــى النـــديـــم فمهمـــا
سقـــى الـــريـــاض كســـاه

وقال لما أشرف على الحضرة المراكشية[1] :

مــاذا أحــدث عــن بحــر سبحــت بــه
مــن البحــار فــلا إثــمٌ ولا حَــرَجُ
دحــاه مبتــدعُ الأشيــاء مستــويــاً
مــا إنْ بــه درك كــلاّ ولا درج
حتــى إذا مــا المنــار الفــرد لاح لنــا
صحــت أبشري يــا مطــايــا جــاءك الفــرج
قــربــت مــن عــامــرٍ داراً ومنــزلــةً
والشــاهــد العــدل هــذا الطيــب والأرج

وقال عند وقوفه على مراكش واعتباره بما صار إليه أمرها[2] :

بلــــدٌ قـــد غـــزاه صرف الليـــالي
وأبـــاح المصـــون منـــه مبيـــحُ
أُعـــجمتْ مـــنه أربُعٌ ورســـومٌ
كـــان قـــدمـــا بهـــا اللســـان الفصيـــح

---

(١) نفح الطيب: ٦/ ٤٨١.
(٢) نفح الطيب: ٦/ ٤٨٥.

كم معان غابت بتلك المغاني
وجمال أخفاه ذاك الضريح
وملوكٍ تعبّدوا الدهر لّما
أصبح الدهرُ وهو عبدٌ صريح
دوّخوا نازحَ البسيطة حتى
قال ما شاء ذابلٌ وصفيح

يحدثنا في الأبيات الأربعة الأولى عن البحر وسكونه، ويثني على الله خالقه، ثم يستبشر خيراً قبيل وصوله إلى مراكش، ويبدو أنه لم يأتِ بجديد في هذه الأبيات، ولكنه سار على الطريقة التقليدية من حيث اختيار الموضوع، مع فارق يميزه عن المشارقة وهو أنهم كانوا يتهيبون البحر وهو يبدي نوعاً من الاطمئنان.

وكذلك الأمر في المقطوعة الثانية، فهو يبكي على ما كان من الأمجاد السالفة، ويندب ما تخرب، وما تهدم، فالموضوع ليس بجديد بل هو قديم مغرق في القدم، يسير في وصفه على سنن الجاهليين في الوقوف على الأطلال.

وقال في غرناطة[1] :

أحييك يا معنى الكمال بواجب
وأقطعُ في أوصافك الغر أوقاتي

تقسّم منك الترب قومي وجيرتي
ففي الظهر أحيائي وفي البطن أمواتي

(١) نفح الطيب: ٦/ ٥٠٣.

والملاحظ في هذين البيتين غلبة عنصر الوجدان على الوصف، فليس هنالك تلك الرشاقة والخفة الفنية التي تُلاحظ في أوصاف البحتري مثلاً وابن الرومي من المشرقيين، ولا هو بلغ ما بلغهُ ابن زيدون وابن عَبد ربه من الأندلسيين.

وقال يصف مروحة سلطانية[1] :

كـأني قـوس الشمـس عنـد طلـوعهـا
وقـد قـدمـت مـن قبلهـا نسمـةُ الفجـرِ
وإلّا كمـا هبّـت بمحتـدم الـوغـى
بنصرٍ ولكـن مـن بنـود بنـي نصر

العتاب:

ولعل الدافع إلى معاتباته، شعراً ونثراً، شعوره بالعظمة، من خلال موقعه كوزير، ومن معاتباته أنه لما دخل مدينة مكناسة الزيتون، تأخر قاضيها ابن أبي رمانة عن لقائه يوم وصوله، فكتب إليه[2] :

جفـا ابـن أبي رمـانـة وجـه مقـدمـي
ونكّـبَ عنـي معـرِضـاً وتحـامـاني

---

(١) نفح الطيب: ٦/ ٥٠٣.
(٢) نفح الطيب: ٥/ ١٤٤.

وحجّب عنّي حبّه غيرَ جاهلٍ
بأني ضيفٌ والمبرّة من شاني
ولكن رآني مغربياً محققاً
وأن طعامي لم يكن حبّ رمّان

وأردف هذه الأبيات بكلام منه: «زيارة القاضي أصلحه الله لمثلي ممن لا يخافه ولا يرجوه، تجب من وجوه: أولها كوني ضيفاً، ممن لا يُعَدُّ على الاختبار زيفاً، ولا تجر مؤانسته حيفاً...». وتبدو في البيت الثالث روح الشاعر الساخرة وحبه للنكتة.

الرثاء:

قال[1] في رثاء السلطان أبي الحجاج:
غبت فلا عينٌ ولا مخبر
ولا انتظارٌ منك مرقوبُ
يا يوسف انت لنا يوسف
وكلنا في الحزن يعقوب[2]

وقال عندما وقف على قبر المعتمد بالله في مدينة أغمات[3]:

---

(١) نفح الطيب: ٦/ ٤٧٤.
(٢) يوسف الأولى: اسم السلطان، والثانية اسم النبي يوسف بن يعقوب عليهما السلام.
(٣) المعتمد: هو المعتمد ابن عباد أعظم ملوك إشبيلية مات بأغمات بعد أن خلع وسجن والأبيات في نفح الطيب: ٦/ ٤٩٥.

قــد زرت قبرك عــن طــوع بــأغمــات
رأيــت ذلــك مــن أولى المهمــاتِ

لم لا أزورك يــا أنــدى الملــوك يــداً
ويــا سراج الليــالي الــدلهمــات

وأنــت مــن لــو تخطــى الــدهــر مصرعــه
إلى حيــاتي لجــادت فيــه أبيــاتي

أنــاف قبرك في هضــب يميّــزه
فتنتحيــه حفيــات التحيــاتِ

كــرمــت حيــاً وميتــاً واشتهــرت عُــلاً
فــأنــت سلطــانُ أحيــاءٍ وأمــوات

مــا ريء مثلــك في مــاضٍ، ومعتقــدي
أن لا يُــرى الــدهــرَ في حــالٍ ولا آتِ

يتضح من خلال ما تقدم أنه صادق في عواطفه في المقطوعتين، وخصوصاً في رثائه للمعتمد، فلم يصطنع له الفضائل على طريقة الجاهليين أو سواهم من المشارقة، بل خاطبه وكأنه حي يسمع ويبصر، وكأن صورته وأعماله ما زالت ماثلة أمام ناظريه، لأنها لا تنسى لعظمتها..

التهاني:

وهي من شعر المناسبات، وترتبط مثل هذه القصائد بالحوادث العظيمة، أو المشاهد المؤثرة التي تظهر فيها عظمة السلطان، كالعودة من سفر، أو من معركة، أو من حج. أو بمناسبة زواج أو قدوم

مولودِ وما يشبه ذلك، مناسبات يستغلها الشعراء والمقربّون ليزدادوا تقرّباً وليعززوا مكانتهم لدي الحكام، يقول ابن الخطيب في آخر سنة ٧٧٤ هـ مهنئاً السلطان أبا حمّو سلطان تلمسان[1] :

وقــــف الغــــرام على ثنــــاك لســــاني
رعيــــاً لمــــا أوليــــتَ مــــن إحســــانِ
فكــــأنمــــا شكــــري لمــــا أوليتــــه
شكُــــرُ الــــريــــاض لعــــارض النسيــــان...
الشمــــس أنــــت قــــد انفــــردت وهــــل يُــــرى
بين الــــورى في مطلــــعٍ شمســــان
وبــــدت سعــــودك مستقيمــــاً سيرُهــــا
وعلَــــت ففــــرّ أمــــامهــــا النحســــان
فــــاستقبــــل السعــــدَ المعــــاود ســــافــــراً
عــــن أي وجــــه للــــرضــــى حُسّــــان
وابــــغ المــــزيــــد بشكــــر ربــــك ولتثــــق
بمضــــاعَــــف الإنعــــام والإحســــان
ثــــم الســــلام عليــــك يــــزري عــــرفــــه
طيبــــاً بعــــرف العــــود والبلســــان

فمن ناحية المضمون، يبدو أنه لم يخرج عن الأطر التقليدية، في التهنئة، من الثناء والشكر وقد أجاد في استحضار صورة الرياض وفي ذلك ما يذكرنا بإدخال عنصر الطبيعة في الأغراض المختلفة، وهو مع

---

(١) نفح الطيب: ٦/ ٥٠٠.

ذلك يمدح فلا انفصال بين المدح والتهنئة. وممدوحه شمس، وهو واحد زمانه متفرد بصفاته، لا تضاهيه الشمس الحقيقية فهو يحجبها إذا برز، وهذا المعنى، معنى التوحد والتفرد، قد سُبق إليه، وهو مشهور عند المشرقيين وخصوصاً عند المتنبي وكذلك ابن الرومي وغيرهما كثير ممن جاء بهذا المعنى. يقول المتنبي في سيف الدولة(١) :

فذا اليومُ في الأيام مثلك في الورى
كما كنت فيهم أوحداً كان أوحدا

والتشبيه بالشمس بحد ذاته من الصور القديمة جداً تداولها الشعراء كثيراً فشبهوا الحبيبة بالشمس، والممدوح ورفعوا من درجته على الشمس الحقيقية يقول المتنبي(٢) :

أحبك يا شمس الزمان وبدرَه
وإن لامني فيك السُّها والفراقدُ

وقال أيضاً(٣) :

كن حيث شئت تسرْ إليك ركابنا
فالأرض واحدةٌ وأنت الأوحدُ

ولا ينسى الشاعر في معظم الأحيان، أن يربط الحدث بخلفية دينية، فتحصيل المزيد من المجد والرفعة، ينبغي أن يقابل بشكر الله

---

(١) ديوانه: ١/٢٨٦.
(٢) ديوانه: ١/٢٨٠.
(٣) ديوانه: ١/٣٣٦.

ليتضاعف الفضل، وتزداد النعم.

أما من حيث الشكل، فواضح أن هذه الأبيات تتضمن بعض الصور البيانية كالاستعارات (شكر الرياض) و(عارض النسيان)، (وفرّ النحسان)، و(السلام يزري عرفه..) والتشبيهات كقوله: (الشمس أنت) والمجاز في (شمسان). ولا ريب في أن هذه الصور قد لعبت دوراً في التأثير وإبلاغ المعاني.

الغزل:

غزلياته، فيما يبدو لي، من خلال ما طالعته من أشعاره قليلة، إلا أن ما وقع تحت عيني، فيه من الرشاقة والعذوبة، ما يجعله مقدماً ـ على قلته ـ على بعض الأغراض الأخرى، يقول[1]:

إن اللحاظ هي السيوف حقيقةً
ومن استراب فحجتي تكفيه
لم يُدعَ غمدُ السيف جفناً باطلاً
إلا لشبه اللحظ يغمد فيه

وقال أيضاً:

دعوتُك للسود الذي جنباته
تداعت مبانيها وهمّت بأن تهي
وقلت لعهد الوصل والقرب بعدما
تناءى وهل أسلو حياتي وأنت هي

---

(١) نفح الطيب: ٦/٥٠٣.

ومـــن شـــام مـــن جـــو الشبيبـــة بـــارقـــاً
ولـــم تنهـــه عنـــه النهـــى كيـــف ينتهـــي

والمعنى الوارد في البيتين الأولين، معنى تقليدي من حيث تشبيه العين بالسيف وبالسهم.

والتكلف واضح في الأبيات الثلاثة التالية، في المجانسة بالأبيات الثلاثة: (بأن تهي، وأنت هي، ينتهي).

ومن غزله الرقيق قوله[1] :

عـــذبـــت قلبـــي بـــالهـــوى فقيـــامـــه
فـــي نـــار هجـــرك دائمـــاً وقعـــودُهُ
ولقـــد عهـــدت القلـــب وهـــو مـــوحّـــد
فعـــلام يُقضـــى فـــي العـــذاب خلـــوده

وقد مزج بين فكره الديني وبين علاقته بالحبيب.

ومن رائق شعره في الغزل قوله[2] :

أصبـــح الخـــد منـــك جنـــة عـــدن
مجتلـــى أعيـــنٍ وشـــمّ أنـــوفِ
ظلّلتـــه مـــن الجفـــون سيـــوفٌ
جنـــة الخلـــد تحـــت ظـــل السيـــوف

---

(١) نفح الطيب: ٦/ ٤٩٨.
(٢) نفح الطيب: ٦/ ٤٧٢.

وقد جمع في هذين البيتين ما يستحسن من المرئيات والمشمومات، عن طريق التشبيه الحسن. فالخد جنة للناظر، ومبعث سرور لمن يشم، والجفن كالسيف، كل ذلك كناية عن حسن ذلك الوجه.

وفي الطرف والحلاوة يقول[1] :

أرسلت طرفي في حُلاك بنظرةٍ
هي كانت السبب الغريب لما بي
وأراك بالعبرات قد عاقبتها
ليس الرسول بموضع لعقاب

وهو يعبر عن شوقه وتحرقه للقاء الأحبة، فالنار في القلب تضطرم، والنفس في لوعة ولا يدري ماذا يفعل يقول[2] :

عيني جنت فعلام تُحرَق أضلعي
أبما جنى جارٌ يُعذّب جارُ
يا قلبُ لا تدهشك نيران الهوى
فكنار إبراهيم تلك النار
فاصبر على ما حمّلوا تنل المنى
بالسبك أدرك نقشه الدينار

وفي مثل ذلك يقول متشوقاً:

---

(١) نفح الطيب: ٦/ ٤٧٢.
(٢) المقطوعتان في نفح الطيب: ٦/ ٥٠٧.

بـرىَ جسـدي فيكـم غـرام ولـوعـة
إذا سكـن الليـلُ البهيـم تثـورُ

فلـولا أنينـي مـا اهتـدى نحـو مضجعـي
خيـالكـم بـالليـل حيـن يـزورُ
ولـو شئـت فـي طـي الكتـاب لـزرتكـم
ولـم تـدر عنّـي أحـرفٌ وسطـورُ

في الأبيات الثلاثة الأولى، يظهر وله الشاعر وغرامه، وهو، يدعو نفسه إلى الصبر واحتمال الأسى، ويخلص بحكمة مفادها أن لا راحة إلا بعد جهد وتعب. أما نار قلبه فهي لاذعة، ويشبهها بالنار التي ألقي فيها سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، مبالغةً في وصفها وفي مدى تلهبها واضطرامها. وفي المقطوعة التالية يعبر عن مأساة البعد وحرارة الشوق، وقد أجاد في البيت الثالث في معنى الزيارة عبر الأثير في طي الكتاب.

الزهد:

وكما كان له في الأغراض السالفة، أدلى بدلوه في الزهد والتصوف والرثاء لحاله والرجوع إلى الله والتبرؤ من ذنوبه، خصوصاً عندما تقدمت به السن، وبعد نكبته الأولى.

من أغراضه الصوفية قوله[١] :

---

(١) نفح الطيب: ٦/ ٥٠٤.

لا تنكـــروا إن كنـــت قـــد أحببتكـــم

أو أننـــي استـــولـــى علـــيَّ هـــواكـــم

طـــوعـــاً وكـــرهـــاً مـــا تـــرون فـــإننـــي

طفـــت الـــوجـــود فمـــا وجـــدت ســـواكـــم

ويقول[1] في الدنيا:

دنيـــا خـــدعـــتِ الـــذي سفـــرتِ لـــه

عـــن صفحـــةٍ لـــم يحـــل بهـــا كـــرم

ـــرقـــتِ حـــظ الإلـــه مـــن يـــده

فهـــان مـــا كـــان منـــه يحتـــرم

ـــذا الـــذي نـــال منـــك ليـــس لـــه

منقطـــعٌ دائـــمٌ ومنصـــرم

رهبـــه نـــال الـــذي أراد أمـــا

بيـــن يـــديـــه المشيـــب والهـــرم

فمـا العمـر إلا كـالحلـم، والـدنيـا لا تبقـى علـى حـال، الإنسان منقلب إلى الشيب والهرم ومهما نال من الدنيا ستنال نه، ويرى ابن الخطيب أن حب الدنيا مع معرفة ما سيؤول إليه صير المرء، أمر لا يجلب إلا الهم والبلاء فيقول[2]:

الله إن لـــم يـــداركهـــا وقـــد وحلـــت

بلمحـــة: أو بلطـــفٍ مـــن لـــدنـــه خفـــي

---

(١) نفح الطيب: ٦/ ٤٨٩.
(٢) نفح الطيب: ٦/ ٤٨٩.

ولـــم يجُـــدْ بتـــلافيهـــا علـــى عجـــلٍ
مـــا أمـــرهـــا صـــائـــر إلا إلـــى التلـــفِ

ومن مواعظه التي تدل على اختباره الدنيا وما فيها من بلا
قوله[1]:

خـــذ مـــن حيـــاتـــك للممـــات الآتـــي
وبـــدارِ مـــا دام الـــزمـــان مـــواتـــي
يـــا مـــن يـــؤمِّـــل واعظـــاً ومـــذكـــراً
يـــومـــاً ليـــوقظـــه مـــن الغفـــلاتِ
هـــلا اعتبـــرت ويـــا ويلهـــا مـــن عبـــرةٍ
بمـــــدافـــــنِ الآبـــــاء والأمّـــــات
قـــف بـــالبقيـــع ونـــاد فـــي عـــرصـــاتـــه
فلكـــــم بهـــــا مـــــن جيـــــرةٍ ولِـــــدات

وهكذا تسير هذه القصيدة على هذا النحو، فيتنقل الشاعر،
بالحديث، ما بين الموت والحياة، وما ينتظر الإنسان بعد موته،
ويذكّر بحتمية الانتقال من حال الحياة إلى الآخرة حيث يُسأل المرء
عما قدّم، فيكتشف عندئذٍ أنه فرّط في حقّ نفسه كثيراً، والإنسان
جدير بأن يبكي على نفسه، لأنه لي يجد من يبكي عليها، فالعاقل
من أدرك ذلك فيقول[2]:

---

(١) نفح الطيب: ٦/ ٣٢٢.
(٢) نفح الطيب: ٦/ ٣٢٦.

إذا لم أنـــح يـــوماً على نفســـي التي
بجـــرّائهـــا أحببـــت كـــلّ حبيـــبِ
وقــد صــح عنــدي أن عــاديــة الــردى
تـــدب لهـــا والله كـــل دبيـــبِ
فمـــن ذا الــذي يبكــي عليهــا بــأدمعــي
إذا كنــتُ مــوصــوفــاً بــرأي لبيــبِ

وفي التصوّف يقول[1] :

أعشّــاق غيــر الــواحــد الأحــد البــاقــي
جنــونكــم والله أعيــا علــى الــراقــي
جننتـــم يفنـــى وتبقـــى مضـــاضـــةٌ
تعـــذّب بيـــن البيـــن مهجـــة مشتـــاقِ
وتـــربـــط بـــالأجســـام نفســـاً حيـــاتُهـــا
مبـــاينـــة الأجســـام بـــالجـــوهـــر الـــراقـــي
وخلّـــوا لهيـــب الشـــوق يطـــوي بهـــا الفـــلا
إلـــى الـــوجـــد فـــي مســـرى رمـــوز وأذواقِ
فمــــا هــــو إلا أنّ تحــــط رحــــالهــــا
بمثـــوى التجلـــي والشهـــود بـــإطـــلاقِ

وهكذا فالحب عنده زيف ما لم يكن لله الواحد الباقي الذي لا يموت، فالنفس لا بد مفارقة للجسم، فليعمل المرء على أن تفارق إلى حيث تجد السعادة. «بمثوى التجلي والشهود بإطلاق».

---

(١) نفح الطيب: ٦/ ٢٩٠.

وسنعود إلى بحث التصوف عند الحديث عن كتاب «الروضة».

أغراض متفرقة:

نظم في أغراض مختلفة على سبيل التورية والتجنيس، على طريقة أهل المشرق: يقول[1]:

ما لي أهذب نفسي في مطامعها
والنفس تأنف تهذيبي وتهذي بي
إذا استعنت على دهري بتجربةٍ
تأبى المقادير تجريبي وتجري بي

ومن التورية قوله[2]:

مضجعي فيكَ عن قتادة يروي
وروى عن أبي الزناد فؤادي
وكذا النوم شاعر فيك أمسى
من دموعي يهيم في كل وادي

وفي التضمين يقول[3]:

رُفعتْ قصة اشتياقي ليحيى
فزوى الوجه رافضاً للفتوهْ

---

(١) نفح الطيب: ٦/ ٤٨٨.
(٢) الأبيات في نفح الطيب: ٦/ ٤٦٣. قتادة من رواة الحديث وكذلك أبو الزناد، وقتادة شجرة ذات شوك. والزناد: الذي يقدح النار.
(٣) نفح الطيب: ٦/ ٤٦٦.

ورمـــى بـــالكتـــاب ضعـــف اهتبـــالِ
(قلـــت يحيـــى خـــذ الكتـــاب بقـــوّه)

وفي تضمين المثل:

لا تهِـــجْ بـــالـــذكـــر فـــيِ كبـــدي
نـــارَ وجـــدِ شـــقّ محتَمَلُـــهْ
ويقـــول النـــاسُ فـــي مَثَـــلِ
(لا تحـــرِّك مـــن دنـــا أجلُـــهْ)

وقال في رجل يحتال على الولاية:

حلفـــتَ لهـــم بـــأنـــك ذو يســـارِ
وذو ثقـــةِ وبـــرٌّ فـــي اليميـــنِ
ليستنـــدوا إليـــك بحفـــظ مـــالِ
فتـــأكـــل بـــاليســـار وبـــاليميـــن

ثانياً: الموشحات:

الموشح من الفنون الشعرية التي استحدثها متأخرو الأندلسيين، ويجمع أهل الأدب والمؤرخون أنّ أهل الأندلس هم الذين اكتشفوا هذا اللون الفني في الشعر. فابن بسام يعتبر أنهم هم الذين وضعوا حقيقة صنعة التوشيح[1]، وكذلك يرى ابن خلدون من أن أهل

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ١/١.

الأندلس كانوا «ينظمونه اسماطاً اسماطاً وأغصاناً أغصاناً، يكثرو
منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً
ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخ
القطعة وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات. ويشتمل كل بيت
على أغصان، وينسبون فيها ويمدحون، كما يفعل في القصائد»[1]
وينسب ابن خلدون فن الموشح إلى مقدم بن معافر القبري من
شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني وأخذ ذلك عنه ابن عبد رب
صاحب العقد.

ولكن موشحاتهما كسدت ولم تذكر، فكان أول من برع في
ذلك الفن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم ابن صمادح صاحب
ألمرية. ومهما كان من شأن الاختلاف حول شخصية مخترع هذ
الفن، فإن ذلك لا يمنع من الإقرار بوجود هذا اللون، وقد نش
حسب ما ذكر ابن خلدون في أواخر القرن الثالث الهجري، ثم تكاثر
الشعراء الذين ضربوا فيه بنصيب من أمثال: الأعمى التطيلي،
ويحيى بن بقي، وأبو بكر بن الأبيض وأبو بكر بن باجه، وفي دول
الموحدين اشتهر محمد بن أبي الفضل بن شرف وابن مؤهل، وأبو
بكر بن زهر الذي يقول:

ما للموله　　من سكره لا يفيق　　يا له سكران
من غير خمر　　ما للكئيب المشوق　　يندب الأوطان

ومن بعده ابن حيون وابن حزمون بمرسية، وأبو الحسن

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١١٣٧.

هل بن مالك بغرناطة، وفي إشبيلية أبو الحسن بن الفضل الذي
ول:

احســـرتـــي لـــزمـــان مضـــى
عشيـــة بـــان الهـــوى وانقضـــى

افـــردت بـــالـــرغـــم لا بـــالـــرضـــى
وبـــت علـــى جمـــرات الغضـــا

عـــانـــق بـــالفكـــر تلـــك الطلـــول
وألثـــم بـــالـــوهـــم تلـــك الـــرســـوم

ممن يُذكر أبو بكر بن الصابوني، ثم ممن اشتهروا ببر العدوة
بن خلف الجزائري وابن خزر البجّائي. ومن محاسن
لموشحات موشحة ابن سهل شاعر إشبيلية وسبتة من بعدها
قول[1]:

ـل درى ظبـي الحمـى أن قـد حمـى
قلـــبَ صـــبٍّ حلّـــه عـــن مكنَـــسِ

فهـــو فـــي حـــرٍّ وخفـــقٍ مثلمـــا
لعـــب ريـــح الصبـــا بـــالقبَـــسِ

وقد نسج على منواله الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب شاعر
الأندلس والمغرب لعصره[2] فقال مُعارضاً:

جـــادك الغيـــث إذا الغيـــث همـــى
يـــا زمـــان الـــوصـــل بـــالأنـــدلـــسِ

(١) نفح الطيب: ٧/ ١١.
(٢) نفح الطيب: ٧/ ١١.

لـــم يكـــن وصلـــك إلا حلمـــا
فـــي الكـــرى أو خِلســـة المختلـــسِ
إذ يقـــود الـــدهـــر أشتـــات المنـــىٰ
ينقـــلُ الخطـــو علـــى مـــا يـــرســـمُ
زمَـــراً بيـــن فـــرادى وثنـــا
مثلمـــا يـــدعـــو الـــوفـــودَ المـــوســـمُ
والحيـــا قـــد جلّـــل الـــروضَ سنـــا
فثغـــورُ الـــزهـــر منـــه تبســـم

وهذه الموشحة هي من أحسن ما قيل في هذا الفن، وقد جمع فيها بين المدح والغزل والوصف ومن الجدير بالذكر أن لسان الدين يؤكد ما ذكره ابن خلدون وغيره عن أولية الأندلسيين في اكتشاف الموشحات فيقول: «ومما قلته من الموشحات التي انفرد باختراعها الأندلسيون وطمس الآن رسمها»(١):

رُبّ ليـــلٍ ظفـــرت بـــالبـــدر
ونجـــوم السمـــاء لـــم تـــدرِ(٢)
حفـــظ الله ليلنـــا ورعـــى
أي شمـــلٍ مـــن الهـــوى جمعـــا
غفـــل الـــدهـــر والـــرقيـــب معـــا

(١) نفح الطيب: ٧/ ٦٥ وأزهار الرياض: ١/ ٣١٤.
(٢) والموشحة هذه تأتي بكاملها في المختارات، وهي في النفح: ٧/ ٦٦.

ليـــت نهـــر النهـــار لـــم يجـــر
حكـــم الله لـــي علـــى الفجـــرِ

ومن موشحاته[1] قوله:

كـــم ليـــوم الفـــراق مـــن غُصّـــه
فـــي فـــؤاد العميـــدْ
نـــرفـــع الأمـــر فيـــه والقصّـــه
للـــولـــي الحميـــدْ
رحـــل الـــركـــب يقطـــع البيـــدا
بسفيـــن النيـــاق
كـــل وجنـــاء تتلـــع الجيـــدا
وتبـــذ الـــرفـــاق
حسبـــتْ ليلـــة اللقـــا عيـــدا
فهـــي ذات اشتيـــاق

أما الموشحة الأولى فإن الطبيعة الخلّابة في الأندلس، تتخايل بين سطورها وأبياتها، وتتهادى بين غصونها وأسماطها، فالليل يجمع العاشقين بعيداً عن الرقباء، ويتمنى الشاعر عدم طلوع النهار، وهو يستمتع وأمامه الماء والأشجار والأصوات العذبة، أصوات البلابل والقيان، ويطلع الصبح، ليعلنها مدحة في بني نصر ملوك غرناطة من بني الأحمر، فهم زينة الناس وحماة الدين، وزينتهم يوسف الذي يفضل غيره من الملوك كفضل الربيع على الفصول،

---

(١) نفح الطيب: ٧/ ٦٧.

ويخلص لسان الدين إلى تهنئة ملكه بالعيد.

إن هذه الموشحة من حيث المعنى لا تختلف عن القصائد الشعرية التقليدية، فالمدح والتهنئة والطبيعة كلها تتداخل في هذه الموشحة، ولكن الإطار الفني هو المختلف فقط، والأفكار الثانوية تقليدية هي أيضاً فكون السلطان أو الملك «إمام الهدى» و«عماد العلا» أو تشبيهه بالغمام، كل ذلك تقليدي، إلا ما كان من تشبيهه بالربيع، فذلك على الطريقة الأندلسية، فهم، وكما أشرنا، مزجوا بين الطبيعة وأغراضهم الشعرية، وخصوصاً الغزل والتهنئة، مما أضفى على أعمالهم بهجة وخفة ورشاقة وألواناً لا نجدها في الأعمال المشرقية، فكيف إذا وجد ذلك المزج وفي إطار الموشح؟!

وفي الموشحة الثانية يتحدث عن الفراق، ويشكو الأمر إلى السلطان منوهاً بحبه له.

وإذا علمنا أن لسان الدين قد ألّف كتاباً في هذا الفن سمّاه «جيش التوشيح»، وجمع فيه الغرائب، وقد ذيّل عليه وزير القلم بالمغرب عبد العزيز بن محمد القشتالي، بكتاب سمّاه «مدد الجيش»، واستهله بقوله بأن لسان الدين جمع في كتابه أكثر من ثلاثمائة موشحة «لأهل العصر في أمير المؤمنين ولأمير المؤمنين».
ونظراً لجودة موشحات ابن الخطيب، فقد تنافس الشعراء في معارضتها وخصوصاً تلك التي أشرنا إليها ومطلعها: «جادك الغيث». . .

فقد عارضها وافد من أهل مكة يُقال له «أبو الفضل بن محمد

العقاد»[1] وكذلك عارضه[2] السلطان المنصور ابو العباس:

وليـــالـــي الشعـــورَ إذ تســـري

مـــا لنهـــر النهـــار مـــن فجـــر

حبـــذا الليـــل طـــال لـــي وحـــدي

لـــو تـــرانـــي جعلتـــه بُـــردي

خلاصة عامة حول شعر ابن الخطيب وموشحاته:

من خلال ما تقدم، يظهر أن لسانَ الدين، قد سار على النهج التقليدي في الشعر، إذ تمثل أشعار المشرقيين وحذا حذوهم في الصور والمعاني والأساليب. إلا أنه زاد على الأغراض المعروفة فناً جديداً آخر وهو الموشح، والموشح في الأصل فن يقوم على العفوية أي بالبعد عن التكلف، فإذا تُكلف فيه فَقَدَ رونقه وعذوبته، لذلك، فإن موشحات ابن الخطيب على العموم، وخصوصاً ما أشرت إليه في هذه الدراسة، تخلو من التكلف، وما ورد فيه من بديع فكان عفو الخاطر موفقاً، أما البيان، فقد عرف لسان الدين كيف يطوِّع الصور المختلفة لخدمة أغراضه، بشكل لا يخرج الصور عن المألوف من حيث الوضوح والموسيقى، لئلا يفقد الموشح مبرره لأنه وجد أصلاً ليغنى.

---

(١) نفح الطيب: ٧/ ٦٨.

(٢) نفح الطيب: ٧/ ٧٣.

الفصل الرابع

نثره

١ ــ النثر قبل لسان الدين:

مهما تباعدت البلاد الناطقة بالعربية ومهما اختلفت عاداتها
وتقاليدها، فإن ثمة روابط مشتركة، لا يستطيع أحد أن يتجاهلها
على الصعيد الفكري والثقافي والاجتماعي، وما يهمنا هنا، ما توفر
اللغة العربية للناطقين بها من عوامل المساعدة والدفع نحو الكتابة
والتأليف والنظم أيضاً، إنها عبقرية اللغة العربية بغناها من حيث
اتساع دوائر الاشتقاق والمترادفات ثم من حيث أساليبها وصورها
الفنية الرائعة التي لا تجد لها مثيلا في اللغات الأخرى في مختلف
انحاء العالم، وإذا كانت بغداد عاصمة العلم والفكر إلى ما قبل
سقوطها على يد المغول، فإن مصر والأندلس قد حافظ كل منهما
على مكانته وخصوصاً بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ، وهكذا ومع
كل ما جرى من تطورات سياسية وتغيرات فكرية ودينية، فإن سمات

لأدب العربي البارزة تبقى هي نفسها في الأقاليم العربية المختلفة، ع تغير طفيف بتأثير البيئة الجغرافية، والانفتاح على الأجناس لأخرى. أما فيما يتعلق بالأندلس، فإن المعالم الأدبية، ولا سيما خاصة بالنثر لم تتضح إلا في القرن الرابع للهجرة، ولا يَعني ذلك ه لم يكن هنالك نثر قبل ذلك بل كان نثر كثير ولكن لم يرقَ إلى رجة ما عُرف في العصر العباسي في المشرق. وأهم المحاولات نثرية في الأندلس، والتي تعتبر في مصاف الدرجة الأولى: العقد فريد لابن عبد ربه وقد ألّفه في القرن الرابع الهجري، وكتاب لأمالي لأبي علي القالي، وبدأ الكتّاب يتنافسون في الصناعة الإنشاء، وأهم ميدان عملوا فيه دواوين الحكام وذوي السلطة، رز كتاب مميزون في الرسائل الديوانية وغير ذلك، ومن كتاب قرن الرابع ابن شهيد الذي تأثر بالهمذاني من المشرقيين وبالصابي، كان يميل إلى الغريب والمبالغة.

وفي عصر الطوائف، حيث تعددت الدول وكثرت المنازعات، عكس ذلك على الأدب فتطور تطوراً ملحوظاً، وترقت الحركة لأدبية رقياً عظيماً، وصار الحكام ينتدبون أفضل الكتّاب للقيام مهام الكتابة والوزارة، والملاحظ أن الرسائل في هذه الفترة غلب ليها السجع والصنعة، ومن الكتّاب المشهورين ابن برد الأصغر، ذي يسير على خطى المشارقة قلباً وقالباً. ثم ابن زيدون الذي ضعونه في مقدمة كتاب العصر وشعرائه أيضاً، ومع تقدمه فإنه قلّد سلف وممن قلدهم الجاحظ في رسالته الهزلية[1] التي يسخر فيها

---

(1) الفن ومذاهبه في النثر العربي: ٣٣٠.

من ابن عبدوس، فأكثر فيها الحكم والأمثال، ومن تضمين الشعر، والآيات الكريمة.

أما في عصر المرابطين، فقد شهدت الكتابة الفنية جموداً، بسبب تشدد الحكام المغاربة مع المفكرين وخصوصاً المتفلسفين، وتغيرت الحال قليلاً أيام الموحدين في منتصف القرن السادس لعنايتهم بالعلوم العقلية، وتستمر الحال هكذا متقلبة حتى القرن السابع أيام دولة بني هود ودولة بني الأحمر في غرناطة، فشهدت الحركة العقلية تقدماً، إلاّ أن الأدب لم يتطور كثيراً، لأن الفقهاء في ذلك الوقت هيمنوا على الإدارة وعلى الحكام، فوصل عدد كبير منهم إلى درجة كاتب ووزير، مما طبع النثر بطابع علمي يغلب عليه الجفاف والسجع، ومالوا إلى استعمال البديع من جناس وطباق، حتى في كتابة التاريخ والسير والتراجم كما في «الذخيرة» لابن بسام، و«نفح الطيب» و«أزهار الرياض» للمقري، وكان هذا الأخير أقل المذكورين في التصنع.

٢ ـــ نثر لسان الدين:

كان لسان الدين كأبيه، إذ نبغ في العلوم المختلفة كما أشرنا سابقاً، ولعله من المفيد أن نذكر هنا ما ساقه ابن خلدون في ترجمته: «قرأ وتأدب على مشيخة غرناطة، واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيـى بن هذيل، وأخذ عنه العلوم الفلسفية، وبرز في الطب، وانتحل الأدب، وأخذ عن أشياخه، وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه، ونبغ في الشعر والترسيل بحيث

لا يجارى فيهما، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر لعصره، وملأ الدنيا بمدائحه وانتشرت في الآفاق، فرقّاه السلطان إلى خدمته وأثبته في ديوان الكتاب ببابه مرؤوساً بأبي الحسن بن الجياب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية، وكاتب السلطان بغرناطة»[1].

وما لبث أن استبد بالوزارة وبرياسة الكتاب واستقل بهما، «وصدرت عنه غرائب فن الترسيل»[2] وخصوصاً أيام «الغني بالله» أبي عبد الله، مما مهّد له السبيل ليكون أعظم كتّاب عصره، مما دفع صاحب نفح الطيب أن يخصص له ولأخباره ثلاثة مجلدات، استعرض فيها حياته وأعماله وشيوخه وتلاميذه، وأخباره عموماً مع شواهد كثيرة ومختارات من نثره وشعره. أما كتاباته النثرية فلم تقتصر على الرسائل الديوانية، أو الإخوانية، بل تعداها إلى تأليف الكتب[3] المطوّلة والرسائل المتخصصة التي تتمتع بأسلوبها العلمي الرصين كالتاريخ والفقه والطب والنحو والموسيقى وغير ذلك من الموضوعات، إلا أنه لم يتخلَ عن استعمال السجع في معظم مؤلفاته، ولو أنه حاول أحياناً أن لا يلتزم ذلك، وخصوصاً في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة».

أ ــ رسائله:

تتراوح رسائله بين رسائل ديوانية، ورسائل إخوانية من تهنئة

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ٧/ ٣٣٢، ونفح الطيب: ٥/ ٩٧.
(٢) نفح الطيب: ٥/ ٩٧.
(٣) راجع ص ٣٧ من هذا الكتاب.

وعزاء، وكذلك له رسائل في الوعظ والإرشاد، وله وصايا ومن أشهرها وصيته لأولاده. ورسائله إجمالاً تمتاز بالإطناب المسرف، والتكرار الزائد من غير ضرورة أو فائدة، مما يؤدي إلى الإملال، لذلك قال عنه بعض نقّاده: «هو كاتب مترسل بليغ لولا ما في إنشائه من الإكثار، الذي لا يخلو من عثار، والإطناب، الذي يفضي إلى الاجتناب، والإسهاب، الذي يقد الإهاب»[١]. هذه الظاهرة، الاطناب، قد أخذها عن المشارقة من المتصنعين، كما أخذ ظاهرة أخرى وبشكل أقل ظهوراً من الإسهاب ألا وهي استخدامه لبعض المصطلحات اللغوية العلمية بطريقة متكلفة مصطنعة جافة، كالقواعد والمباني والجزم والحدود، وهو مع ذلك لم يهمل السجع في أكثر رسائله. واللافت للانتباه في سجعه، أنه يعتمد حرفاً معيناً في السجع ولا يكاد يفارقه في بعض رسائله، ثم إنه يسجع ضمن السجعة الواحدة سجعتين جزئيتين، وبذلك تفوق على أقرانه ومن ذلك ما كتبه في رسالة عن سلطانه إلى خليفة الموحدين بالأندلس يقول[٢] في مقدمتها: «الخلافة التي ارتفع عن عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف، واستقلت مباني فخرها الشائع، وعزها الذائع، على ما أسسه الأخلاف، ووجب لحقها الجازم وفرضها اللازم، الاعتراف، ووسّعت الآملين لها الجوانب الرحيبة والأكناف،

(١) نفح الطيب: ٩/٢٦.
(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف: ٣٣٥.

فامتزاجنا بعلائها المنيف وولائها الشريف، كما امتزج الماء والسلاف». . .

ومن رسالة أخرى[1] وجهها على لسان سلطانه الغني بالله بعد عودتهما من المغرب إثر المحنة الأولى إلى سلطان مصر والشام وملك الحرمين المنصور بن أحمد بن الناصر بن قلاوون قال فيها: «ولمّا صيّر الله إلينا تراثهم الهني، وأمرهم السني، وبناءهم العادي، وملكهم الجهادي، أجرانا ــ وله الطّول ــ على سننهم، ورفع أعلامنا في هضابهم المشرفة وقننهم، وحملنا فيهم خير حمل، ونظم بنا لهم أي شمل، وألبس أيامنا سلماً فسح الدارة، وأحكم الإدارة، وهنأ الإمارة. . .».

يتبين مما ورد في هذه المقطوعة أن السجع فيها من النوع المألوف غير المركب، وفواصله قصيرة، ولعله لم يعمد إلى التركيب المعقد، كما في المقطوعة السابقة، لأن الرسالة موجهة إلى سلطان مصر والشام، ولا داعي للمزيد من التكلف فيها، غير أنه لم يهمل في القطعتين الجناس الناقص، ولا يعني ذلك أنه يلتزم التجنيس في كل رسالة من رسائله، فهو لا يتقيد بمنهج، بل يتنقل في ما بينها ويحط الرحال حيث يطيب له.

ومن نثره[2] العذب ما كتبه عن السلطان أبي الحجاج يوسف بن نصر إلى سيدنا محمد ﷺ إثر شعرٍ:

---

(١) نفح الطيب: ٥/ ٩٠.
(٢) الرسالة بكاملها مع الشعر في نفح الطيب: ٦/ ٣٥٤.

«إلى رسول الحق إلى كافة الخلق، وغمام الرحمة الصادق البرق، الحائز في ميدان اصطفاء الرحمٰن قصب السبق، خاتم الأنبياء، وإمام ملائكة السماء، ومن وجبت له النبوّة وآدم بين الطين والماء، شفيع أرباب الذنوب، وطبيب ادواء القلوب، والوسيلة إلى علّام الغيوب، نبي الهدى الذي طهر قلبه...» وينتقل بعد هذا الثناء إلى ذكر سلطانه فيقول:

«من عتيق شفاعته، وعبد طاعته، المعتصم بسببه، المؤمن بالله ثم به، المستشفي بذكره كلما تألم... المتوسل به إلى رضى الله ربه، يوسف بن إسماعيل بن نصر؛ كتبه إليك يا رسول الله والدمع ماح، وخيل الوجد ذات جماح، عن شوق يزداد كلما نقص الصبر...».

ويتابع معبراً عن شوق سلطانه للقاء خير البشر، شاكياً إليه طالباً الصفح والعذر، ثم يدعو الله تعالى أن يمكّنه من زيارة النبي ﷺ، يقول: «... فما أسعد مَن أفاض من حرم الله إلى حرمك، وأصبح بعد أداء ما فرضت عن الله ضيف كرمك، وعفّر الخد في معاهدك ومعاهد أسرتك، وإني لما عاقني عن زيارتك العوائق، وإن كان شغلي عنك بك، وعدتني الأعداء فيك عن وصل سببي بسببك وأصبحت بين بحرٍ تتلاطم أمواجه وعدو تتكاثف أفواجه، ويحجب الشمس عند الظهيرة عجاجه، في طائفة من المؤمنين بك وطّنوا على الصبر نفوسهم...».

ثم يختم الرسالة بالدعاء وطلب العون، وبالصلاة والتسليم. والملاحظ أن الرسالة تزخر بالسجع، والتجنيس، والاقتباس من

الآيات الكريمة: «فلا تفردنا ولا تهملنا، وناد ربّك فينا ﴿ربنا ولا تحملنا﴾[1] ».

ومن رسالة[2] خاطب بها الفقيه أبا القاسم بن رضوان: «... ورأيت الخط يبهر والحظ يبهر والحمد لله تعالى ويروق، واللفظ الحسن تومض في حبره للمعنى الأصيل بُروق، قلت: ارتفع الوصب، وردّ من الصحة المغتصَب، وآلة الحس والحركة هي العصب، وإذا أشرق سراج الإدراك دل على سلامة سليطه، والروح خليط البدن والمرء بخليطه، وعلى ذلك فلا يقنع بليد احتياطي إلا الشرح، ففيه يسكن الظمأ البرح، وعذراً عن التكليف فهو محل الاستقصاء والاستفسار، والإطناب والإكثار...».

ولا يخفى على الناظر ما في المقطوعة أعلاه من السجع المتكلف والإطناب الذي اعترف به الكاتب واعتذر، فضلاً عن مصطلحات فلسفية سخّرها للتعبير عن حالٍ صحية فأدخل الفلسفة بالطب....

ب ــ المقامات:

المقامة في اللغة هي المجلس، والسادة، والجماعة من الناس إذا التقوا. وتطور مفهوم المقامة إلى أن صارت تعني الأقصوصة،

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.
(٢) نفح الطيب: ٦/٤٣.

والأحدوثة من الكلام. ويعتبر بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ، أول من فتح عمل المقامات، ثم تلاه الحريري، وتميزت المقامات في هذا العصر، بما كانت تحمله من الغرائب اللغوية، وضروب الصنعة من البديع والبيان، هذا من حيث الشكل، أما من حيث المضمون، فكانت على صورة حكاية، تنتهي إلى عبرة أو عظة، وتدور الحكاية على لسان شخصية خيالية، واتخذت المقامة في المشرق بعد ذلك منحى آخر، فصارت تتضمن موعظة أخلاقية، ثم صارت تخلو من الكدية أو الاستجداء، وابتعدت عن التكلف والتصنع، كما في مقامات الزمخشري.

أما في الأندلس، فقد تأثر الأندلسيون بما روي عليهم من مقامات المشرقيين، ومنهم محمد التميمي السرقسطي المتوفى بقرطبة سنة ٥٣٨ هـ، ومن كتّاب المقامة الأندلسيين في القرن السادس الأديب محارب بن محمد الوادي آشي، لنصل إلى أيام دولة بني الأحمر في القرنين السابع والثامن، وكان ابن الخطيب ممن برزوا في هذا الفن وأدلى بدلوه فيه، ومن مقاماته: معيار الاختيار في أحوال المعاهد والديار[١]، وخطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف[٢]، ومقامة السياسة.

أما مقامته في السياسة، فقد جعلها تدور بين اثنين من الأبطال:

---

(١) هذه المقامة وصف لبعض مدن المغرب وبعض مدن مملكة غرناطة.

(٢) يصف فيها رحلة تفتشية قام بها السلطان الغرناطي أبو الحجاج يوسف (٧٣٣ هـ - ٧٥٥ هـ)، في أنحاء مملكة غرناطة وبصحبته الوزير لسان الدين ابن الخطيب.

هما هارون الرشيد، وحكيم فارسي الأصل، عربي اللسان، ولعله اختار الحكيم الفارسي، لما كان للفرس من معرفة قديمة في السياسة والحكم. على كل حال، لم يكن ما أجراه على لسان ذلك الحكيم إلا صدى نفسه، فقد عبّر عن تجربته وخبرته في ميدان السياسة والحياة والعلاقات العامة بين الملوك، والحكام والمحكومين. قال في مقدمة المقامة[1] : «سهر الرشيد ليله، وقد مال في هجر النبيذ ميله، وجهد ندماؤه في جلب راحته، وإلمام النوم بساحته، فشحّت عهادهم، ولم يغن اجتهادهم فقال: اذهبوا إلى طرق سمّاها ورسمها، وأمهات قسمها، فمن عثرتم عليه من طارق ليل، أو غثاء سيل، أو ساحب ذيل، فبلغوه، والأمنة سوّغوه، واستدعوه، ولا تدعوه، فطاروا عجالى، وتفرقوا ركباناً ورجالاً، فلم يكن إلا ارتداد طرف، أو فواق حرف، وأتوا بالغنيمة التي اكتسحوها، والبضاعة التي ربحوها، يتوسطهم الأشعث الأغبر، واللج الذي لا يعبر: شيخ طويل القامة، ظاهر الاستقامة»...

ويسهب في وصفه حتى مثل أمام الرشيد فسأله: «ممن الرجل؟ فقال: فارسي الأصل، أعجمي الجنس، عربي الفصل»، ثم سأله الرشيد عن حاله وولده وعن فنه فأجاب: «الحكمة فني الذي جعلته أثيراً، وأضجعت فيه فراشاً وثيراً».

«فقال الملك: أجملت ففصِّل، وبريت فنصّل، وكِلْتَ فأوصل وانثر الحب لمن يحوصل، واقسم السياسة فنوناً، واجعل لكل لقب

---

(١) نفح الطيب: ٦/٤٣١.

قانوناً، وابدأ بالرعية، وشروطها المرعية».

فقال: «رعيّتك ودائع الله تعالى قِبلك، ومرآة العدل الذي عليه جَبَلَك، ولا تصل إلى ضبطهم إلا بإعانةِ الله تعالى التي وهب لك، وأفضل ما استدعيت به عونه فيه، وكفايته التي تكفيهم، تقويمُ نفسك عند قصد تقويمهم».

ويتابع مفصّلاً شارحاً فبين دور الوزير الصالح وصفاته ومنها «بعيد الهمة، راعياً للأذمة، رحيب الصدر رفيع القدر، معروف البيت، دريّاً بحمل السلاح. . .» وغير ذلك من الصفات والخلال الهامة التي استفاض في سردها. ثم انتقل إلى العمال، وذكرّه بالعدل فيما بينهم، ثم يتحدث عن الأولاد فيرشده إلى تربيتهم على خلال الخير كحب العلم، والصبر على المكاره، والبعد عن اللاهين والكاذبين. أما الخدم فإنهم بمنزلة الجوارح التي «تفرق بها وتجمع»، فصونهم مطلوب، والحذر منهم خصوصاً من قويت شهواته. ولم ينس النساء لأنهن «مغارس الولد، وراحة القلب» فيقول: «واحذر أن تجعل لفكر بشرٍ دون بصرٍ إليهن سبيلاً، وانصب دون ذلك عذاباً وبيلاً. . . وأقلل من مخالطتهن فهو أبقى لهمتك، ولتكن عشرتك لهن عند الكلال والملال. . . وأفصل من ولدت منهن إلى مسكن تختبر به استقلالها. . .».

ثم يتحدث عن المال وأهميته «فالمال المصون أمنع الحصون، ومن قلّ ماله قصرت آماله». وينهي المقامة بمجموعة من النصائح للملك، كأن يقرّب العلماء لأنهم بمنزلة المشاعل المعلقة، وأن يكثر من العمارة ففيها بقاء الذِّكر، وذكرّه بأن يثق بالله ويتوكل عليه، وتحدث عن المعلمين وأرشد إلى تحذيرهم من مغبة حمل الأحداث

على الشكوك، وبيّن أخيراً بأن الحجّاب وإن كثروا فلا يغنون، لأن الملك مهما احتجب فهو «بمنزلة الظاهر للعيون المطالَب بالديون».

ويخلص ابن الخطيب لإنهاء مقامته حيث استعدى الحكيم عوداً «فأصلحهُ حتى حمده، وأبعد في اختباره أمده، ثم حرّك بمّه، وأطال الجسّ ثمه، ثم تغنى بصوت يستدعي الإنصات ويصدع الحصاة...» ثم أجال اللحن إلى لون التنويم، فأخذ كل في النعاس والتهويم... فخاط عيون القوم، بخيوط النوم، وعمر بهم المراقد، كأنما أدار عليهم الفراقد، ثم انصرف، فما علم به أحد...».

وخلاصة القول: أن ابن الخطيب قد خرج بالمقامة من نطاقها الضيق الذي وضعها فيه أسلافه، فلم يتخذها وسيلة لإظهار البراعة اللغوية والبلاغية كبديع الزمان، والسرقسطي وغيرهما من المشارقة والأندلسيين، كما أنه لم يجعلها، مادة للترفيه والتسلية وملء الفرغ، بل نحا بها باتجاه مختلف تماماً عما كانت عليه، فهي إطار فني ذو موضوع يعالج مسائل إنسانية تتصل بالإنسان الفرد وبالمجتمع، والدولة، وعالج فيها مسائل سلوكية وتربوية ولا يصدر ذلك إلا عن أديب بارع متفنن له من التجارب السياسية والإنسانية ما يرفعه من منزلة الكاتب العادي إلى درجة المفكر المصلح والمرشد الواعظ، والمعلم الحكيم..

ولكنه، ومن حيث الشكل والأسلوب، حافظ على السجع كوسيلة فنية يشبع فيها رغبته، ولكن تلاحظ السهولة في الألفاظ، وقصر الجمل على طريقة الفتح بن خاقان.

ولعل اللافت الأبرز، أنه استطاع أن يكتب في السياسة والإدارة

والتنظيم والأخلاق في آن معاً، فالمقامة ليست مقامة عادية، بل هي دستور سياسي وأخلاقي وقانوني، جدير بالنظر والدرس والتعمق، كل ذلك في إطار أدبي فني رفيع بما يحويه من بساطة في الكلام، وخفة ورشاقة في العبارات نظراً لقصرها فضلاً عن السجع غير الثقيل والبعيد عن التكلف غالباً.

ج ــ مواعظه وتصوفه:

وتحتل حيّزاً كبيراً، خصوصاً في كتابه: «روضة التعريف بالحب الشريف» وقد اعتبر في كتابه هذا أن «حب الدنيا هو المانع عن الشروع في إطلاق العمل»[1] ، والوعظ عنده يكون بلسانين: لسان حال، ولسان مقال، ويرجح أن يكون لسان الحال أبلغ، لأنه يُسمَع من القبور الموحشة، والقصور الخالية، والعظام البالية، وفيه حكايات وأخبار، أما لسان المقال فهو كقوله تعالى: ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسَهم،وتبيّنَ لكم كيف فعلنا بهم، وضرْبنا لكمُ الأمثال﴾[2] . وهو، على حد تعبير ابن الخطيب، «سبيل الله التي بعث بها النبيين، وضمن فصولها الكتاب المبين، والسوط الذي يحمل على الأوبة، ويسوق ذود المتطهرين إلى غدير التوبة»[3] .

يقول في إحدى مواعظه بعد حمد الله تعالى: «﴿إنما أموالكم

---

(١) نفح الطيب: ٦/ ٣١٥.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٥.
(٣) نفح الطيب: ٦/٣١٦.

وأولادُكم فتنةٌ والله عنده أجرٌ عظيم﴾[1]، ما بعد المقيل إلا الرحيل، ولا بعد الرحيل إلا المنزل الكريم أو المنزل الوبيل، وإنكم تستقبلون أهوالاً، سكراتُ الموت بواكر حسابها وعتب أبوابها، فلو كشف الغطاء عن ذرة منها لذهلت العقول وطاشت الألباب...»[2].

ومن أقواله في الوعظ:

«أين المعمر الخالد؟ أين الولد أين الوالد؟ أين الطارف أين التالد؟ أين المجادل أين المجالد؟ ﴿هل تحسُّ منهم من أحدٍ أو تسمعُ لهم رِكزاً﴾[3]، وجوهٌ علاهن الثرى، وصحائف تُفض، وأعمال على الله تُعرض، بحث الزهّاد والعباد، والعارفون والأوتاد، والأنبياء الذين يُهدى بهم العباد، عن سبب الشقاء الذي لا سعادة بعده، فلم يجدوا إلا البعد عن الله تعالى، وسببه حب الدنيا»[4].

يتضح مما تقدّم، أنه يربط الشقاء بحب الدنيا، فلا سعادة مع التمسك بالأعراض الزائلة، والأمل هو الذي يفتح على النفس باب الحتف.

ومن أهم وصاياه تلك التي توجه بها نحو أبنائه، لما اشتملت عليه من المعاني الجليلة السامية، والمشاعر الصادقة، وما أظهره من حرص على الباقية قبل الفانية، لأولاده من بعده فليست سعادتهم إلا

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٨.
(٢) نفح الطيب: ٦/٣١٨.
(٣) سورة مريم، الآية: ٩٨.
(٤) نفح الطيب: ٦/٣٢٠.

في الآخرة، إذا اعدوا لها عدتها. يقول بعد حمد الله وصلاته على نبيه[1]:

«وبعد، فإني لما علاني المشيب بقمته، وقادني الكبر في رمته، وادكرت الشباب بعد أمته، أسفت لما أضعت، وندمت بعد الفطام على ما رضعت، وتأكد وجوب نصحي لمن لزمني رعيه، وتعلق بعيني سعيه، وأملت أن تتعدى إلي ثمرة استقامته، وأنا رهين فوات، وفي برزخ أموات، ويأمن العثور في الطريق التي اقتضت عثاري، إن سلك ــ وعسى أن لا يكون ذلك ــ على آثاري، فقلت أخاطب الثلاثة الولد، وثمرات الخلد، بعد الضراعة إلى الله تعالى في توفيقهم، وإيضاح طريقهم، وجمع تفريقهم، وأن يمنّ علي منهم بحسن الخلف، والتلافي من قبل التلف، وأن يرزق خلفهم التمسك بهدي السلف، فهو ولي ذلك، والهادي إلى خير المسالك».

ويتابع قائلاً:

«وكأني بشبابكم قد شاخ، وبراحلكم قد أناخ، وبناشطكم قد كسل، واستبدل الصاب[2] من العسل، ونصول الشيب تروع بأسل، لا بل السام من كل حدب قد نسل، والمعاد اللحد ولا تسل، فبالأمس كنتم فراخ حجر، واليوم ابناء عسكر مجر، وغداً شيوخ مضيعة وهجر، والقبور فاغرة، والنفوس عن المألوفات صاغرة، والدنيا بأهلها ساخرة، والأولى تعقبها الآخرة، والحازم من لم يتعظ به في أمر، وقال: بيدي لا بيد عمرو، فاقتنوها من وصية ومرام في النصح

---

(١) نفح الطيب: (٧/ ٣٩١. وأزهار الرياض: ١/ ٣٢٠ وما بعدها ــ ٤٠٦).
(٢) الصاب: جمع الصابة وهي ضرب من الشجر مر.

قصية، وخصّوا بها أولادكم إذا عقلوا، ليجدوا زادها إذا انتقلوا».

ثم يوصيهم بأن لا يفرطوا في دينهم ويذكرهم بالآية: ﴿يا بني إنّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُن إلا وأنتم مسلمون﴾[1]، «والدين الذي ارتضاه واصطفاه، وأكمله ووفاه، وقرره مصطفاه من قبل أن يتوفاه، إذا أعمل فيها انتقاد، فهو عمل واعتقاد، وكلاهما مقرر، ومستمد من عقل أو نقل محرر، والعقل متقدم وبناؤه مع رفض أخيه متهدم، فالله واحد أحد، فرد صمد، ليس له والد ولا ولد. تنزّه عن الزمان والمكان، وسبق وجوده وجود الأكوان، خالق الخلق وما يعملون، الذي لا يُسأل عن شيء وهم يُسألون، الحي العليم المدبّر القدير ﴿ليس كمثله شيء وهُو السميعُ البصير﴾[2]، أرسل الرسل لتدعو الناس إلى النجاة من الشقاء».

ثم يدعوهم إلى محبة العلم وقبوله ومحبة العلماء وإجلالهم، ويحذرهم المعاطب التي توجب الشقاء، ويطلب إليهم التمسك بعقيدة التوحيد ويذكر بقول الله تعالى: ﴿ومَنْ يبتغِ غيرَ الإسلام ديناً فلنْ يُقبل منه، وهو في الآخرةِ مِنَ الخاسرينَ﴾[3]، ويتشدد عليهم بأداء الصلاة ويبين فضلها ويأمر بالطهارة ويوضح أهميتها، وكذلك الزكاة والصيام والحج، ويربط ذلك كله بالعلم ويقرر الفرق بين العالم والجاهل ويستشهد بقوله تعالى: ﴿قُل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٢.
(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

الألباب﴾[1]، وخير العلوم علوم الشريعة من فقه وحديث، ولا بد للمسلم من أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويكون صادقاً، فيتجنب الكذب، ويذكرهم بأن يحافظوا على الأمانة والعفة والصيانة، والمناصحة، ويعرض للنواهي المحرمات كالخمرة والربا والزنا، ويأمر بتجنب الحسد والغيبة ويحثهم على صنع المعروف والصدقات، والصبر على الأذى، ويحذر من شهادة الزور من الاشتراك في أمور الفتن والبطالة، كما يدعوهم بأن يتقربوا إلى الله بالدعاء، ويوصيهم بأن يبروا أهل مودته، ويختم محذراً من الدنيا داعياً إلى الاعتدال والصيانة استعداداً إلى الرحيل بغية النجاة في الآخرة.

وهذه الوصية، فريدة حقاً، في معناها، فهي شاملة وافية بالغرض لمن أراد أن يتّعظ ويتعلم فلم يترك فيها شاردة ولا واردة من الأمور الضرورية للدنيا والآخرة، فالدنيا لا تساوي شيئاً ولا تستحق الاهتمام، إلا بالمقدار الذي تتطلبه العبادة للعبور إلى الآخرة بقلب سليم مطمئن حيث النعيم الموعود.

كتابه الموسوم «روضة التعريف بالحب الشريف».

يقول لسان الدين في مقدمة الكتاب[2]:

«وعنّ لي أن أذهب بهذا الحب المذهب المتأدي إلى البقاء، الموصل إلى ذروة السعادة في معارج الارتقاء، الذي غايته نعيم لا

(١) سورة الزمر: الآية: ٩.
(٢) نفح الطيب: ٦/٢٧٩. وما بعد.

ينقضي أمده، ولا ينفد مدده، ولا يفصل وصله، ولا يفارق الفرعَ أصلُه، حب الله المبلغ إلى قربه، المستدعي لرضاه وحبه، المؤثر بالنظر إلى وجهه، ويا لها من غاية، الملقي رحلَ المتصف به بعد قطع بحار الفناء على ساحل الولاية.

«وكنت وقفت من الكتب المؤلفة في المحبة على جملة منها كتاب يشهده العوام ويستخفه الهوام، ورسالة ابن واصل رسالة مهذارة، تطفو من دارة إلى دارة في مطاردة هر وفارة، وكتاب ابن الدباغ القيرواني، كتاب مفرقع، ووجه المقصود منه متبرقع، وكتاب ابن خلصون وهو أعدلها لولا بداوة تسم الخرطوم وتناسب الجمل المخطوم، فكنت بما ذكر لا أقنع وأقول ما أصنع، فالله يعطي ويمنع».

ويقول في منهج الكتاب:

«وجعلته شجرة وأرضاً، فالشجرة المحبة مناسبة وتشبيهاً، وإثارة لما ورد في الكتب المنزلة وتنبيهاً، والأرض النفوس التي تغرس فيها، والأغصان أقسامها التي تستوفيها، والأوراق حكاياتها التي تحكيها، وأزهارها أشعارها التي تحييها، والوصول إلى الله تعالى ثمرتها التي ندخرها بفضل الله ونقتنيها».

«وليس لها كالشجر جنس ولا فصل، وتربتها روح ونفس عقل».

ويقول:

«ونقلت شواهد من الحديث والخبر تجري صحاحها مجرى الزكاة من الأموال، والخواطر من الأحوال، ويجري ما سواها من غير الصحيح مجرى الأمثال، ليكون هذا الكتاب لعموم خيره،

مسرحاً للفاره وغيره، ويجد كلٌّ ميداناً لسيره، وملتقطاً لطيره، ومحكاً لغيره...».

ثم يعرّف الحب بقوله:

«والحب حياة النفوس الموات، وعلة امتزاج المركبات وسبب ازدواج الحيوان والنبات، وسر قوله عز وجل: ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات﴾[1]، ليس كالحب الذي دوّن فيه المدونون».

«... والحازم من نظر في العواقب، نظر المراقب، وعرف الإضاعة، ولم يجعل الحلم بضاعة، إن الحب الحقيقي حب يصعدك ويرقيك، ويخلدك ويبقيك، ويطعمك ويسقيك ويخلصك إلى فئة السعادة مما يشقيك، ويجعل لك الكون روضاً، ومشرب الحق حوضاً، ويجنيك زهر المنى، ويغنيك عن أهل الفقر والغنى، ويخضع التيجان لنعلك...».

يتضح، من خلال ما تقدم، أن لسان الدين، يدعو إلى التصوف، كما فهمه، على أنه الطريق الموصل إلى السعادة، وطريق السعادة المحبة، والمحبة الحقيقية توصل إلى المعرفة اليقينية. فأوائل الأحباب الأنبياء صلوات الله عليهم، وهم رؤساء أهل المحبة، والمحبة بنظره بحر بعيد الشط، وخطٌّ والفناء منتهى الخط، والمحبة مهوى بعيد، ومجال وعد ووعيد، مِرجل يغلي، ثم خيال يولي، وليس له حد عليه يعول. والوالد يشفق على أولاده ويعطف

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

عليهم، لما يعلم من مغريات الدنيا ولذاتها، فهو يخاف أن تأخذهم، فيقعون في فخاخها ويتغافلون عن دار السعادة بالأعراض البخسة في دنياهم، وبهذا الإحساس توجه إليهم، بصدق وبإخلاص وبمحبة راجياً منهم أن يقبلوا مواعظه ويعملوا بما وجههم إليه. وقد اتبع لإقناعهم وسائل عقلية بالكشف عن زيف الدنيا وبهرجها وخداعها، وبين ما في الآخرة من نعيم، بعد أن أمر باتباع ملة التوحيد قبل أي شيء، وقد اقتبس الكثير من الآيات الكريمة في سبيل تأييد ما يذهب إليه.

ومن ناحية أسلوبه. فإنه اعتمد التسلسل المنطقي في سرد أفكاره، فقدّم ثم تناول موضوع الإيمان، وانتقل بعد ذلك إلى الفرائض الكبرى، ثم تدرّك إلى التفاصيل وبعدها إلى السلوك فالخاتمة.

وقد حافظ على السجع كإطار فني لا غنى عنه، إلا أنه لم يجعله مركباً، بل هو من الصور المألوفة، وفواصله قصيرة، لذلك اتسمت الموعظة بجلاء أفكارها ووضوح عباراتها، وسهولة ألفاظها وبعدها عن التكلف.

وكلمة أخيرة إن كتابه هذا وما جاء فيه من فكر تصوفي، قد اتخذه اعداؤه ذريعة لتنفيذ مؤامرتهم ضده، إذ كانوا يكيدون له منذ مدة طويلة قبل رحيله إلى الأندلس. ففتشوا عن عيوبه فلم يجدوا إلا أن يطعنوا في ما ورد في الكتاب كما مرّ، عند حديثنا عن حياته. والحب عنده حج ثانٍ لا يثني نفس المريد عنه ثان، طريقه التجريد، وزاده الذكر، وطوافه المعرفة، وإفاضته الفناء. ومن كلامه في الهوى بأنه طريق سهل لذلك يكثر التائهون جهلاً.

وهو إذ يتكلم عن المحبة والهوى، يشير إلى العقل والعاقلين وفي ذلك إشارات فلسفية يسير فيها على طريقة الفلاسفة فيقول: «قلدتم العقل وله طور، ورأيتم الحركات لا يتناهى لها دور، وعالم الجزئيات لا يُسبر له غور».

ويقول: «﴿ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً﴾[1] اساطين الحكمة المشرقية، وفرَاش الأنوار الحقيقية، دعونا من استكثار الأنوار، واحتشاد الأطوار». وإنك تراه يتهم البعض بالتقصير عن إدراك معاني الآيات، بل هم عاجزون عن تفسير الآيات المتشهابة يقول:

«وأوسعتم المتشابه تأويلاً، ولم تعتمدوا من العقل دليلاً، ولا وقفتم في مجازات العقول قليلاً، وهوّلتم باصطلاح غيركم تهويلاً، وادعيتم الشهود ولم يجعل الله تعالى في الاحتجاج به إلا للأنبياء سبيلاً، وبنيتم الحقائق على قياس ونظر، من غير عين للعقل والنقل ولا أثر».

ثم يقول:

«ومن جعل الحس وهماً، فقد كابر العيان ظلماً، والعقل الذي غلطكم هو آلة حكمكم، وأداة علمكم، والعوالم أوثق من أن تكون تمويه راقش، . . . فالفيلسوف، يتحد بالعلة القريبة من الخلق، ثم يتلاشى في ذات الحق، والحكيم يجوز إلى عين الحق رتبة الفناء المطلق، والمتشرع قد عضده ونصره».

والعقل عنده قاصر عن إدراك كل شيء، فله طاقة لا يستطيع أن

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٣.

يتجاوزها. يقول: «ولا تكلفوا العقول فوق طاقتها، فلا بد من توقيف وتسليم، وفوق كل ذي علم عليم».

نظرية المعرفة[1]:

ويعرّف المعرفة بقوله «المعرفة اختراق المراتب الحسية، والنفوس الجنسية، والعقول القدسية والبروز إلى فضاء الأزل، إذا فني من لم يكن وبقي من لم يزل، مع عمران المراتب ورؤية الجائز في الواجب».

فبالمعرفة يذهب الكيف والأين، وينتقل الإنسان من الشدة إلى الفرج، ويصعد وينزل ويقف ويصل، فلا يقطعه الوصول عن البداية، ولا البداية تمنعه عن النهاية.

أما العارف، فيشكر المصلين الركع والسجود، ويعذر الواحد المتواجد، ويرجم المنكر الجاحد، والعارف شجاع، لأنه «بمعزل عن هيبة الموت»، وجواد كريم، لأنه «بمعزل عن صحبة الباخل»، وصفّاح، لأنه بعيد عن الزلّات، كما يرى لسان الدين، وهو بعيد عن الأحقاد سرعان ما ينسى الإساءة لأنه مشغول بالحق، ويخلص إلى تقرير مفاده بأن من عرف الله تعالى فقد صفا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كل شيء وذهب عنه خوف المخلوقين.

والوصول إلى درجة الولاية، بنظره، ليس أمراً صعباً، ولا هو

---

(١) نفح الطيب: ٦/٢٦٨.

بالسهل، لكن بالمجاهدات والرياضة وبالسلوك التدريجي بتغذية النفس يستطيع المجاهد أن يبلغ المرام.

الخاتمة

قدمت في هذا الكتاب عرضاً سريعاً للبيئة والعصر الأندلسيين من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية، ثم أردفت بدراسة سيرة لسان الدين ابن الخطيب فعرضت لجوانب حياته المختلفة بما يكشف عن شخصيته الفكرية والأدبية. ثم تناولت ثقافته ومؤلفاته وشيوخه، بالإضافة إلى نماذج محللة من نثره وشعره. وذيلت الكتاب بطائفة من رسائله ومواعظه وأشعاره لعل القارىء، يجد في ذلك، ما يجلو أمامه الصورة واضحة عن لسان الدين، ومعالم شخصيته وفكره.

تمَّت الرسالة

والحمد لله رب العالمين

مختارات شعرية

وفي وصف مكناسة الزيتون يقول:

بـالحسـن مـن مكنـاسـة الـزيتـون
قـد صـح عـذرُ النـاظـر المفتـونِ
فضـلُ الهـواءِ وصحـة المـاء الـذي
يجـري بهـا وسـلامـة المخـزون
سحّـت عليهـا كـلُّ عيـنٍ ثـرّةٍ
للحـزنِ هـاميـةِ الغمـامِ هتـونِ
فـاحمـر خـدُّ الـوردِ بيـن أبـاطـح
وافتـر ثغـر الـزهـر بيـن غصـون
ولقـد كفـاهـا شـاهـداً مهمـا ادّعـت
قصـب السبـاق القـرب مـن زرهـون
جبـلٌ تضـاحكـت البـروق بجـوّه
فبكـت عـذابُ عيـونِـه بعيـون
وكـأنمـا هـو بـربـري فـاقـد
فـي لـوجِـه والتيـن والـزيتـون
حييـتَ مـن بلـدٍ خصيـبٍ أرضـه
مثـوى أمـانٍ أو منـاخ أمِـون
وضفـتْ عليـك مـن الإلـه عنـايـةٌ
تكسـوك ثـوبَـيْ أمنـةٍ وسكـونِ

وفي مدح تلمسان يقول:

حيّـا تلمسـانَ الحيـا فـربـوعهـا
صـدفٌ يجـودُ بـدرِّه المكنـونِ

ما شئت من فضلٍ عميم إن سقى
أروى ومنّ ليس بالممنون
أو شئت من دين إذا قدح الهدى
أورى ودنيا لم تكن بالدون
ورد النسيمُ لها بنشرِ حديقةٍ
قد ازهرتْ أفنانها بفنون
وإذا حبيبة أمّ يحيى أنجبتْ
فلها الشفوفُ على عيون العِين[1]

وفي التضمين يقول:
يا كوكبَ الحسنِ يا معناه يا قمرَهْ
يا روضه المتناهي الريع يا ثمرَه
أمرتني بسلوٍ عنكَ ممتنع
مأمور حسنك لمّا يقضِ ما أمرَه

وفي التورية يقول:
بأبي بدرٌ غزاني
مستبيحاً شرح صدري
فإني اليوم شهيدُ الـ
حب من غزوة بدرِ

(١) حبيبة أم يحيى: عين ماء بتلمسان عذبه.

وقال واعظاً:

إنّا إلى الله وإنّا له
ما أشغلَ الإنسانَ عن شانِه
يرتاح للأثواب يُزهى بها
والخيط مغزولٌ لأكفانه
ويخزن الفلس لوراثه
مستنفداً مبلغ أكوانه
قوّضْ عن الفاني رحال امرئٍ
مدَّ إليه عينَ عرفانه
ما كمَّ إلا موقفٌ زاهدٌ
قد وكِلّ العدلُ بميزانه
مفرِّط يشقى بتفريطه
ومحسنٌ يُجزى بإحسانه

وفي التصوف، معبّراً عن الحب الحقيقي يقول:

أعشّاق غير الواحد الأحد الباقي
جنونكم والله أعيا على الراقي
جننتم بما يفنى وتبقى مضاضةٌ
تعذّب بين البين مهجة مشتاق
وتربط بالأجسام نفساً حياتُها
مباينة الأجسام بالجوهر الراقي
فلا هي فازت بالذي علقت به
ولا رأس مالٍ كان ينفعها باقي

ـــراقٌ وقســـرٌ وانقطـــاعِ وظلمـــةٌ
قِنــي البُعــدَ مِـن نيـل السعـادة يـا واقـي
ـأنـي بهـا مـن بعـد مـا كشـف الغطـا
صـــريعـــة أحـــزانٍ لـــديغـــة أشـــواق
قلّـــب كفّيهـــا بخيـــط مـــوصّـــلٍ
رشيقـــة قـــدٍّ دون سبعـــة أطبـــاق
ـلا تطعمـوهـا السـم فـي الشهـد ضلّـةً
فـــذلـــك ســـمٌّ لا يـــدواى بـــدريـــاق
دسّـــوا لهـــا المعنـــى رويـــداً وأيقظـــوا
بصيـــرتهـــا مـــن بعـــد نـــومٍ وإغـــراق
ـإن سكـرتْ واستشـرفـت عنـد سكـرهـا
لمـــاهيـــة المسقـــى ومعـــرفـــةِ الســـاقـــي
طيلـوا علـى روض الجمـال خطـورهـا
إلـى أن يقـوم الـوجـد فيهـا علـى سـاق
وخلّـوا لهيـب الشـوق يطـوي بهـا الفـلا
إلـى الـوجـدِ فـي مسـرى رمـوز وأذواق
فمـــا هـــو إلا أن تحـــط رحـــالهـــا
بمثـــوى التجلـــي والشهـــود بـــإطـــلاق
وتفنـى إذا مـا شـاهـدت مـن شهـودهـا
وقـد فنـي الفـانـي وقـد بقـي البـاقـي
هنـالـك تلقـى العيـش تضفـو ظـلالـه
وتنعـــم مـــن عيـــن الحيـــاة بـــرقـــراق

ومـــا قِســـم الأرزاق إلا عجيبـــة
فـــلا تطـــرد الســؤَّال يـــا خيـــر رزاق

قال مهنئاً سلطان تلمسان أبا حمّو سنة ٧٧٤ هـ:

أنـــا شيعـــة لـــك حيـــث كنـــت، قضيـــةٌ
لـــم يختلـــف فـــي حكمهـــا نفســـان
ولقـــد تشـــاجـــرت الـــرمـــاح فكنـــت فـــي
ميـــدان نهـــرك فـــارس الفـــرســـان
ورويـــتْ غـــرّ مـــآثـــرٍ أسنـــدتُهـــا
لعـــلاكَ بيـــن صحـــائـــحٍ وحســـان
ولأنـــت أولـــى بـــالتشيـــع شيمـــةً
لـــم تتفـــق لســـواك مـــن إنســـان

الشمـــس أنـــت قـــد انفـــردت وهـــل يُـــرى
بيـــن الـــورى فـــي مطلـــعٍ شمســـان
جبـــرت بجبـــرك كـــل نفـــس حـــرةٍ
وشـــدا بشكـــر الله كـــلُّ لســـان
وبـــدت سعـــودك مستقيمـــاً سيـــرُهـــا
وعلـــت ففـــر أمـــامهـــا النحســـان
فـــاستقبـــل السعـــد المعـــاود ســـافـــراً
عـــن أي وجـــه للـــرضـــى حُسّـــان
وابـــغ المـــزيـــدَ بشكـــر ربِّـــك ولتثـــقْ
بمضـــاعَـــفِ الإنعـــام والإِحســـان

فــالشكــر يقتــاد المــزيــد ركــائبــاً
تنتــاب بــابــك منــه فــي أرســان
ثــم الســلام عليــك يُــزرى عــرفــه
طيبــا بعُــرف العــود والبلَسَــان

وقال، وقد رُفع للسلطان باكورة بنفسج :

قــدم البنفســج وهــو نعــم الــواردُ
قــد نــمَّ منــه إلــى طيــبٌ زائــدُ
فســألتــه : مــا بــالــه؟ فــأجــابنــي
والحــق لا يُبغــى عليــه شــاهــد
أقبلــتُ أطلــبُ مــن بنــانِ محمــدٍ
صلــةً فعــاد علــيَّ منــه عــائــد

وقال عند انصراف ولده عبد الله إلى مدينة فاس :

بــان يــومَ الخميــس قــرّة عنــي
حسبــي الله أي مــوقــفِ بيــنِ
لــو جنــى مــوقــفُ النــوى حيــن حيّــا
حــان يــوم الــوداع والله حينــي
ضــايقتنــي صــروف هــذي الليــالــي
وأطــالــت همــي وألــوت بــدينــي
وطــنٌ نــازحٌ وشمــلٌ شتيــتٌ
كيــف يبقــى معــذّبٌ بعــد ذيــنِ
يــا إلهــي أدركْ بلطفــك ضعفــي
إن مــا أشتكيــه ليــس بهَيــن

قال يشكر السلطان أبا حمّو صاحب تلمسان على ما كان أعان به أهل الأندلس:

لقــــد زار الجـــزيـــرة منـــك بحـــرٌ
يمـــدّ فليـــس تعـــرف منـــه جَـــزْرَا

أعــدت لهـــا بعهـــدك عهـــد مـــوســـى
سميِّـــك فهـــي تتلـــو منـــه ذكـــرا

أقمـــت جـــدارهـــا وأفـــدت كنـــزاً
ولـــو شئـــتَ اتخـــذت عليـــه أجـــرا

وقال في الوصف:

بلـــدٌ تحـــف بـــه الـــريـــاض كـــأنـــه
وجـــهٌ جميـــلٌ والـــريـــاض عـــذارهُ

وكـــأنمـــا واديـــه معصـــم غـــادةٍ
ومـــن الجســـور المحكمـــات ســـواره

وقال يصف بنيونش سبتة:

بنيـــونـــش أسنـــى الأمـــاكـــنِ رقعـــةً
وأجـــل أرضِ الله طـــراً شـــانـــا

هـــي جنـــة الـــدنيـــا التـــي مـــن حَلّهـــا
نـــال الـــرضـــى والـــرَّوح والـــريحـــانـــا

قـــالـــوا القـــرودُ بهـــا فقلـــت فضيلـــةٌ
حيـــوانُهـــا قـــد قـــاربَ الإنســـانـــا

وقال في الغزل:

ومــا كــان إلا أن جنــى الطــرف نظــرةً
غــدا القلــبُ رهنــاً فــي عقــوبــة ذنبــهِ
ومــا العــدل أن يــأتــي امــرؤ بجــرَيــرةٍ
فيــؤخــذَ فــي أوزارهــا جــارُ جنبــه

وفي معنى التوديع والفراق يقول:
نــاديــت دمعــي إذ جــدّ الــرحيــلَ بهــم
والقلــب مــن فَــرَقِ التــوديــع قــد وجبــا
سقطــت يــا دمــع مــن عينــي غــداة نــأى
عنــي الحبيــب ولــم تقــضِ الــذي وجبــا

وفي الشيب يقول:
تفــرّ عــن الشيــبِ الغــوانــي تعــززاً
كمــا يعتــريهــا إن رأت ســامَ أبــرصــا
بــدا وضحــاً فــي جــدة العمــر شــانيــاً
فمــن ســام شيخــاً فهــو قــد ســام أبــرصــا

وفي رثاء من اسمه حسن يقول:
أشكــو إلــى الله مــن بثــي ومــن شجنــي
لــم أجــنِ مــن محنتــي شيئــاً ســوى محــنِ
أصــابــتِ الحســن العيــن التــي رشقــت
وعــادةُ العيــن لا تُصمــي ســوى الحســنِ

وكان يترجم أحياناً على طريقته المميزة:

قال في بعضهم: «كودن حلبة الآداب، وسنّور عبد الله بي
بقيراط لما شاب، هام بوادي الشعر مع من هام، واستمطر من
الجهام، فجاء بأبيات أوهى من بيت العنكبوت نسجاً، ومقاصد
تبين مقصداً ولا نهجاً، وله بيت معمور بقضاة أكابر، فرسان أقلا
ومحابر، وعمال قادوا الدهر بأزمة أمتهم... وتصرّف آخر عمره في
بعض الأعمال المخزنية فتعلل بنزر القوت، إلى الأجل الموقوت».

ومن إنشاء لسان الدين في تولية الأمير يوسف مشيخة الغُز
على لسان السلطان والده:

«هذا ظهير كريم فاتح بنشر الألوية والبنود، وقود العساك
والجنود، وأجال في ميدان الوجود، جياد البأس والجود، وأضف
ستر الحماية بالتهائم والنجود، على الطائفين والعاكفين، والرك
السجود عقد للمعتمد به عقد التشريف، والقدر المنيف، زاك
الشهود، وأوجب المنافسة بين مجالس السروج ومضاجع المهود
وبشر السيوف في الغمود وأنشأ ريح النصر آمنة من الخمود، أمض
أحكامه، وأنهد العز أمامه، وفتح من زهر السرور والحبور كمامه
أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نصر ـ أيد الله تعالى أمر
وخلد ذكره ـ لكبير ولده وسابق أمده، وريحانة خلده وياقوتة المل
على يده، الأمير الكبير الطاهر الظاهر الأعلى... السعيد المظف
الهمام الأعلى الأمضى... المجاهد المؤمل المعظم أبي الحجا
يوسف...»

ومن إنشائه على لسان السلطان:

«هذا ظهير كريم، مضمنه استجلاء لأمور الرعية واستطلاع، ورعاية كرمت منها أجناس وأنواع، وعدل بهر منه شعاع، ووصايا ها اهطاع، أصدرنا للفقيه فلان لما تقرر لدينا دينه وعدله وفضله أينا أنه أحق من نقلده السهم الأكيد، ونرمي به من أغراض البر غرض البعيد، ونستكشف به أحوال الرعايا حتى لا يغيب عنا شيء ن أحوالها... وأمرناه أن يتوجه إلى جهة كذا حاطها الله تعالى يجمع الناس في مساجدهم ويندبهم من مشاهدهم، ويبدأ بتقرير رضنا في صلاح أحوالهم... ومن أهم ما أسندناه إليه وعولنا فيه عليه البحث بتلك الأحواز، عن أهل البدع والأهواء».

«ويتفقد المساجد تفقداً يكسو عاريها، ويتمم منها المآرب تتميماً رضي باريها، ويندب الناس إلى تعليم القرآن لصبيانهم».

«وعلى من يقف عليه من القواد والأشياخ والحكام أن يكونوا معه يداً واحدة على ما حررنا في هذه الفصول...»

ومن وصفه المرسل غير المسجّع قوله حين أجرى ذكرى مدينة مكناسة الزيتون»: «وأطلّتْ مدينة مكناسة في مظهر النجد، رافلة ي حلل الدوح، مبتسمة عن شنب المياه العذبة، سافرة عن أجمل لمراد، قد أحكمَ وضعَها الذي أخرج المرعى، قيد النص وفذلكة لحسن، فنزلنا بها منزلاً لا تستطيع العين أن تخلفه حسناً ووضعاً من لد دارت به المداشر[1] المُغِلّة، والتفتْ بسوره الزياتين المفيدة، راق بخارجه للسلطان المستخلص الذي يسمو إليه الطرف، ورحب ساحة والتفاف شجرة ونباهة بنية وإشراف ربوة، ومثلت بإزائها

(١) المداشر: القرى.

الزاوية القُذْمى المعدة للوارد، ذات البركة النامية، والمئذنة السامية، والمرافق المتيسرة، يصاقبها الخان البديع المنصب الحصين الغلَق الخاص بالسابلة والجوّابة في الأرض يبتغون من فضل الله تعالى».

قال الوزير لسان الدين: وطلب مني الكتَب عليه بمثل ذلك، فكتبت ببعض أوراقه إثارة لضجره، واستدعاء لفكاهة انزعاجه، ما نصه:

«وقفت من الكتاب المنسوب لصاحبنا أبي زكريا البرغواطي على برسام محموم، واختلاط مذموم، وانتساب زَنج في روم، وكان حقه أن يتهيب طريقاً لم يسلكها، ويتجنب عقيلةً لم يملكها، إذ المذكور لم يتلق شيئاً من علم الأصول، ولا نظر من الإعراب في فصل من الفصول، إنما هي قِحَة وخلاف، وتهاونٌ بالمعارف واستخفاف، غير أنه يحفظ في طريق القوم كل نادرة، وفيه رجولية ظاهرة، وعنده طلاقة لسان، وكفاية قلَّما تتأتى لإنسان، فإلى الله نضرع أن يعرِّفنا مقادير الأشياء، ويجعلنا بمعزل عن الأغبياء، وقد قلت مرتجلاً من أول نظرة، واجتزاء بقليل من كثرة:

كــلُّ جــارٍ لغــايــةٍ مَــرْجــوّهْ
فهــو عنــدي لــم يَعْــدُ حــقَّ الفتــوَّهْ

وأراكَ اقتحمــتَ ليــلاً بهيمــاً
مــولجــاً منــك نــاقــةً فــي كــوّهْ

لا اتبّــاعــاً ولا اختــراعــاً أتتنــا
إذْ نظــرنــا عــروسَــكَ الْمجلــوّهْ

كــلُّ مــا قلتَــهُ فقــد قــالــه النــا
سُ مقــالاً آيــاتُــهُ متلــوّهْ

لـــم تـــزدْ غيـــرَ أن أبحـــتَ حمـــى الإِعـ
ـــــرابِ فـــي كـــلّ لفظـــةٍ مقـــروّهْ
نســـــألُ الله فكـــــرةً تلـــــزمُ العقـ
ـــــلَ إلـــى حشمـــةٍ تحـــوطُ المـــروّهْ
وعـــزيـــزٌ علـــيَّ أن كنـــتَ يحيـــى
ثـــم لـــم تـــأخـــذ الكتـــاب بقـــوّهْ»

ـ ومن بديع نثر لسان الدين ما كتبه لسلطان تلمسان إثر قصيدة سينية حازت قصب السبق، ولنثبت الكل هنا فنقول: قال الإمام الحافظ عبد الله التنسي نزيل تلمسان رحمه الله تعالى، عندما جرى ذكر أمير المسلمين السلطان أبي حمّو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يَغَمْراسَنْ بن زيان رحمه الله تعالى. ما صورته: وكان الفقيه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب كثيراً ما يوجه إليه بالأمداح، ومن أحسن ما وجه له قصيدة سينية فائقة، وذلك عندما أحس بتغير سلطانه عليه، فجعلها مقدمة بين يدي نجواه، لتمهد له مثَواه، وتحصل له المستقر، إذا ألجأه الأمر إلى المفر، فلم تساعده الأيام، كما هو شأنها في أكثر الأعلام، وهي هذه:

أطلَعْـــنَ فـــي سُـــدَفِ الفـــروع شمـــوســـا
ضـحـــكَ الظـــلامُ لهـــا وكـــان عبـــوســـا
وعطَفْـــنَ قُضبـــاً للقـــدودِ نـــواعمـــاً
بُـــوَئّـــنَ أدواحَ النعيـــمِ عَـــروســـاً
وعـــدَلْـــنَ عـــن جهـــرِ الـــلام مخـــافـــةَ الـ
واشـــي فجئـــنَ بلفظـــهِ مَهْمـــوســـا

وسَفَــرن مــن دهَــش الــوداع وقــومُــ
ـهُــنَّ إلـى التَرحّـلِ قـد أنـاخـوا العيسـا
وخلســنَ مــن خَلــلِ الحجــالِ إشَــارةً
فتــركــن كــلَّ حجــالهــا مخلــوســا
لــم أنسهــا مــن وحشــةٍ والحــي قــد
زَجَــــرَ الحمـــولَ وآثـــرَ التّغْليســـا
لا الملتقــى مــن بعــدهــا كَثَــبٌ ولا
عُــوجُ الــركــائــبِ تســأمُ التّخْييســا[1]
فــوقفــتُ وِقْفَــةَ هــائــم بــرحــاؤهُ
وُقِفَـــتْ عليـــهِ وحُبّسَـــتْ تحبيســـا
ودَعَــوْتُ عينــي عــاتبــاً وعيــونهــا
بعصــا النــوى قــد بجّســت تبجيســا
نــافســتِ يــا عينــيَّ درَّ دمــوعهــم
فعــرضــتِ دراً للــدمــوعِ نفيســا
مــا للحمــى بعــدَ الأحبّــةِ مــوحشــاً
ولكَــمْ تــراءى آهــلاً مــأنــوســا
ولِســرْبــهِ حــولَ الخميلَــةِ نــافــراً
عَمّــنْ يحــسّ بــه وكــان أنيســا
ولظلّـــهِ المـــورودِ غمـــرُ قَليبـــهِ
لا يقتضـــي ورداً ولا تغْـــريســـا

---

(١) التخييس: تذليل الدابة.

حييّتُــهُ فــأجــابنِــي رَجْــعُ الصــدى
لا فَـــرْقَ بينهمـــا إذا مـــا قيســـا
مــا إن يــزيــدُ علــى الإِعــادةِ صــوتُــهُ
حــرفــاً فيشفــي بــالمــزيــدِ نسيســا[1]
نَضَــبَ المعيــنُ وقلّــصَ الظــلُّ الــذي
ظَلْنــا عكــوفــاً عنــدهُ وجُلــوســا
نَتــواعَــدُ الــرُّجْعــى ونَغْتنــمُ اللقــا
ونــديــرُ مــن شكــوى الغــرام كــؤوســا
فــإذا ســألــتَ فــلا تســائــلْ مخبــراً
وإذا سمعــتَ فــلا تحــسُّ حسيســا
عهــدي بــهِ والــدهــرُ يتحــفُ بــالمنــى
وقــد اقتضــتْ نعمــاهُ أن لا بــوســا
والعيــشُ غَــضّ الــرَّيْــعِ والــدُّنيــا قــد اجــ
ـتليَــتْ بمغنــاهُ علــيَّ عَــروســا
أتُــرى يعيــدُ الــدهــرُ عهــداً للصبّــا
دَرَسَــتْ مغــانــي الأنــسِ فيــهِ دروســا
أوطـــانُ أوطـــارٍ تعـــوّضَ أُفقهـــا
مــنْ رونَــقِ البشــرِ البهــيّ عبُــوســا
هيهـــاتَ لا تغنـــي لعـــلَّ ولا عســـى
فـــي مثلهـــا إلاّ لآيـــةِ عيســـى

---

(١) النسيس: غاية الجهد.

والـدَّهْـرُ فـي دسـتِ القضـاء مـدرِّسٌ
فـإذا قضـى يسـتأنـفُ التـدريسـا
تفتـنُّ فـي جُمَـلِ الـورى أبحـاثُـهُ
لا سيّمـا فـي بـاب نعـمَ وبيسـا
وسجيَّـةُ الإنسـانِ ليـسَ بنـاصـلٍ
مـن صبغهـا حتـى يُـرى مرمـوسـا
يغتـرُّ مَهْمـا سـاعَـدَتْ آمـالُـهُ
فـإذا عَـراهُ الخطـبُ كـان يـؤوسـا
فَلَـو أنَّ نفسـاً مُكنّـتْ مـن رشـدْهـا
يـومـاً وقـدَّسهـا الهـدى تَقْـديسـا
لـم تَسْتَفِـزَّ رسـوخَهـا النعمـى ولا
هلعـتْ إذا كَثُـرتْ إليهـا البـوسـى
قـلْ للـزمـانِ إليـكَ عـن مُتَـذمِّـمٍ
بضمـانِ عـزٍّ لـم يكُـن ليخيسـا[1]
فـإذا استَحَـرَّ جـلادُهُ فـأنـا الـذي اسـ
ـتغشيـتُ مـن سـردِ اليقيـنِ لَبـوسـا
وإذا طغـى فـرعـونـهُ فـأنـا الـذي
مـن ضُـرِّهِ وأذاهُ عُـذْتُ بمـوسـى
أنـا ذا أبـو مثـواهُ مَـنْ يحمـي الحمـى
ليثـاً ويعْلَـمُ بـالـزئيـرِ الخيسـا

---

(١) خاس: غدر.

بحمى أبي حمّو حططتُ ركائبي
لمّا اختبرتُ الليثَ والعرّيسا
أسَدُ الهياجِ إذا خَطا قُدُماً سطا
فتخلّفَ الأسدَ الهزبرَ فريسا
بدرُ الهدى يأبى الضلالَ ضياؤهُ
أبداً فيجلو الظلمةَ الحنديسا
جَبلُ الوقارِ رسا وأشرف واعتلى
وسما فطأطأتِ الجبالُ رؤوسا
غيثُ النوالِ إذا الغمامُ حَلوبةٌ
مَثَلتْ بأيدي الحالبين بَسوسا[1]
تَلْقاهُ يومَ الأنس روضاً ناعماً
وتَراهُ بأساً في الهياجِ بئيسا
كمْ غمرةٍ جلّى وكمْ خطب كفى
إنْ أوطأ الجُرْدَ العتاقَ وطيسا
كم حكمةٍ أبدى وكم قصد هدى
للسالكينَ أبانَ منهُ دريسا[2]
أعلى بني زيّان والفذُّ الذي
لَبِسَ الكمالَ فزيّنَ الملبوسا
جَمَعَ الندى والبأسَ والشيَمَ العلا
والسؤددَ المتواترَ القُدْموسا

---

(١) البسوس: الناقة التي تتطلب إبساساً أي تسكيناً كي تدر.
(٢) الدريس: الطريق الخفي.

والحلمُ ليسَ يبايـن الخلق الـرضـى
والعلـمُ ليـسَ يعـارضُ النـامـوسـا
والسعـدُ يغنـي حكمـه عـن نَصْبـةٍ
تَسْتَخْبـرُ التـرْبيـعَ والتّسْـديسـا
كـمْ راضَ صعبـاً لا يـراض مُعـاصيـاً
كـم خـاض بحـراً لا يخـاضُ ضـروسـا
بلَـغَ التـي لا فـوقهـا متمهّـلاً
وعـلا السُّهـا واستسفـل البـرجيسـا[1]
يـا خيـرَ مَـنْ خفقـتْ عليـه سحـابـةٌ
للنّصـرِ تُمطـرهُ أجـشَّ بجيسـا[2]
وأجـلَّ مـن حملتْـه صَهْـوةُ سـابـح
إن كـرَّ ضعضـع كـرُّهُ الكُـردوسـا
قسَمـاً بمـن رفـع السمـاء بغيـر مـا
عَمَـدٍ ورَفّـعَ فـوقَهـا إدريسـا
ودحـا البسيطَـةَ فـوقَ لُـجٍ مُـزبـدٍ
مـا إن يـزالُ علـى القـرارِ حبيسـا
حتـى يهيـبَ بـأهلـهِ الـوعـدُ الـذي
حشـر الـرئيـسَ إليـهِ والمـرؤوسـا

---

(١) البرجيس: المشتري.
(٢) البجيس: غزير في تدفقه.

مـا أنـتَ إلاَ ذخـرُ دهـرِكَ دمـتَ فـي الـ
ـصـونِ الحـريـزِ مُمَتَّعـاً محـروسـا
لـو سـاومتـهُ الأرضُ فيـكَ بمـا حَـوَتْ
لَـراَكَ مستـامـاً بهـا مبخـوسـا
حلـف البـرورُ بهـا أليَّـةَ صـادقٍ
ويميـنُ مَـنْ عقـدَ اليميـنَ غمـوسـا
مَـنْ قـاسَ ذاتـكَ بـالـذواتِ فـإنّـهُ
جَهِـلَ الـوزانَ وأخطـأ التقييسـا
لا تستـوي الأعيـانُ فضـلَ مـزيّـةٍ
وطبيعـةٍ فَطَـرَ الإلـهُ وسُـوسـا[1]
لعنـايـةِ التّخصيـصِ سـرٌّ غـامـضٌ
مـن قبـل ذَرْء الخلـقِ خَـصَّ نفـوسـا
مـن أنكـرَ الفضـلَ الـذي أُوتيتَـهُ
جَحَـدَ العيـانَ وأنْكَـرَ المَحْسـوسـا
مـن دان بـالإخـلاصِ فيـكَ فعقـده
لا يقْبَـلُ التّمْـويـهَ والتّلْبيسـا
والمنتمـى العَلَـويّ عيصُـكَ لـم تكـنْ
لتـرى دخيـلاً فـي بَنيـهِ دَسيسـا
بيـتُ البتـولِ ومنبـتُ الشـرفِ الـذي
تحمـي المـلائـكُ دوحَـهُ المغـروسـا

(١) السوس: الطبيعة والسجية.

أمّـا سيـاستـكَ التـي أحْكَمتهـا
ورَمَيْـتَ بـالتقصيـرِ أسطـاليسـا
فَلَـو أنَّ كسـرى الفـرس أبصـر بعضُهـا
مـا كَـان يَطْمـعُ أنْ يُعـدّيَ سـوسـا[1]
لـو سار عـدلـك في السنيـن لمـا اشتكتْ
بخسـاً، ولـم يـكُ بعضهـن كبيسـا
ولـو الجواري الخُنسُ انتسبتْ إلى أقـدام
عـزْمـكَ مـا خنسَـنَ خُنـوسـا[2]
قُـدْتَ الصعـابَ فكـلّ صعـبٍ سـامـحٌ
لـكَ بـالقيـادِ وكـانَ قبـلُ شَمـوسـا
تلقـى الليـوثَ وللقَتـام غَمـامَـةٌ
قَـدَحَ الصَفيـحُ وميضَهـا المَقْبـوسـا
وكـأنهـا تحـتَ الـدروعِ أراقـمٌ
يَنظـرنَ مـنَ خلـلِ المغـافـرِ شـوسـا
مـا لابـنِ مـامـةَ فـي القَـديـم وحـاتـمِ
ضـربَ الـزمَـانُ بجـودهـم نـاقـوسـا
مَـنْ جـاء منهـمْ مثـلَ جـودكَ كلّمـا
حسبـوا المكـارمَ كسْـوَةً أو كيسـا
أنـتَ الـذي افتـكَّ السفيـنَ وأهلـه
إذْ أوسعـتْ سُبُـلُ الخـلاصِ طمـوسـا

---

(١) يعدي سوسا: يتجاوز السوس، وهي موضع بتستر.
(٢) الخنوس: الغياب.

أنت الذي أمددتَ ثعرَ اللّهِ بالصـ
ـدقاتِ تُبْلِسُ كَرَّةً إبليسا
وأعَنْتَ أنْدلُساً بكلّ سبيكَةٍ
موسومَةٍ لا تعرفُ التّدليسا
وشَحينةٍ بالبرّ في سُبُلِ الرضى
والبرّ قارب قاعُها القاموسا

إنْ لم تجرَّ بها الخميسَ فطالما
جَهّزْتَ فيها للنّوالِ خميسا
وملأتَ أيديها وقد كادت على
حكمِ القضاء تُشافِهُ التّفْليسا
صدّقْتَ للآمالِ صَنعةَ جابرٍ
وكفيتها التشميعَ والتّشْميسا[1]
والحلَّ والتقطيرَ والتصعيدَ والـ
ـتخميرَ والتصويلَ والتّكْليسا[2]
فسبكتَ من آمالها مالاً، ومنْ
أوراقها وَرِقاً، وكنَّ طُروسا

---

(١) التشميع: تليين الشمع.
والتشميس: تعريض المواد للشمس.
(٢) الحل: التحليل الكيميائي؛ والتقطير والتصعيد التنقيـة. والتصويل: التغسيل.

بُهِتـوا فلمّـا استخبـروا لـم ينكـروا
وزنـاً ولا لـونـاً ولا ملمـوسـا
وتُـديـرُ مـن قَلْـبِ السّطـورِ سبـائكـاً
منهـا ومـن طبـع الحـروفِ فلـوسـا
ونحـوتَ نحـوَ الفضـلِ تعضـدُ منـه بَـالـ
ـمسمـوعِ مـا ألفيـتَ منـهُ مَقيسـا
وجبـرتَ بعـدَ الكسـرِ قـومَك جـاهـداً
تُغْنـي العـديـمَ وتُطلـقُ المحبـوسـا

ونشـرتَ رايـةً عـزِّهـمْ مـن بعـد مـا
دالَ الـزمـانُ فسـامهـا تنكيسـا
أحْكَمْـتَ حيلَـةَ بُـرئهـمْ بلطـافـةٍ
قـد أعجـزتْ فـي الطّـبّ جـالينـوسـا
وفَلَلْـتَ مـنْ حـدّ الـزمـانِ وإنّـهُ
أوحـى وأمضـى مـن غِـرارِ المـوسـى
وشحـذتَ حَـدّاً كـان قبـلُ مثَلّمـاً
ونعشـتَ جَـدّاً كـان قبـلُ تعيسـا
لـمْ تـرجُ إلاّ اللّـهَ جـلَّ جـلالـهُ
فـي شـدّةٍ تُكفـى وجـرحٍ يـوسـى
قَـدَّمْـتَ صبحـاً فـاستضـأتَ بنـورهِ
ووجـدتَ عنـد الشـدّةِ التنفيسـا
مـا أنـتَ إلاّ فـالـحٌ متيَقّـنٌ
بـالنُّجْـحِ تعمـرُ مُمْـرِعـاً ويبيسـا

ومتـــاجـــرٌ جعـــلَ الأريكـــةَ صهـــوةً
عَـــربيّـــةً والمُتكـــا القَـــربَـــوســـا
مـــا إنّ تُبـــايـــعُ أو تشـــاري واثقـــاً
بـــالـــربـــح إلاّ المـــالـــكَ القُـــدُّوســـا
والعـــزمُ يفتـــرعُ النجـــومَ بنـــاؤهُ
مَهْمـــا أقـــامَ علـــى التُّقـــى تـــأسيســـا
ومقـــام صبـــركَ واتكـــالـــكَ مُـــذكـــرٌ
بحـــديثـــه الشبلـــيَّ أو طـــاووســـا
ومَـــنِ ارتضـــاهُ اللَّـــهُ وفّـــقَ سعيَـــهُ
فـــرأى العظيـــمَ مـــن الحظـــوظِ خسيســـا
مـــا ازددتَ بـــالتمحيـــصِ إلاّ جـــدّةً
ونضـــوتَ مـــن خِلَـــعِ الـــزمـــانِ لَبيســـا
ولطـــالمـــا طـــرقَ الخســـوفُ أهلّـــةً
ولطـــالمـــا اعتـــرضَ الكســـوفُ شمـــوســـا
ثـــمّ انجلَـــتْ قَسمـــاتهـــا عـــن مشـــرقٍ
للسّعْـــدِ ليـــسَ بحـــاذرٍ تَتْعيســـا
خـــذْهـــا إليـــكَ علـــى النـــوى سيّنيـــةً
تـــرضـــى الطّبـــاقَ وتشكـــرُ التجنيســـا
إن طـــووِلَـــتْ بـــالـــدّرّ مـــنِ حـــول الطلـــى
يـــومـــاً تشكـــت حظهـــا المـــوكـــوســـا
لـــولاكَ مـــا أصْغَـــتْ لخطبـــةِ خـــاطـــبٍ
ولعُنِّسَـــتْ فـــي بيتهـــا تعنيســـا

قصـــدتْ سليمـــانَ الـــزمـــانِ وقـــاربـــتْ
فـــي الخطـــوِ تحســـبُ نفسهـــا بَلْقيســـا
لـــي فيـــكَ وُدٌّ لـــم أكـــنْ مـــن بعـــد مـــا
أعطيـــتُ صفقـــةَ عهـــدهِ لأخيســـا
كـــمْ لـــي بصحـــةِ عقـــده مـــن شـــاهـــدٍ
لا يحْـــذَرُ التجـــريـــحَ والتّـــدليســـا
يقفـــو الشهـــادةَ بـــاليميـــنِ، وإنّـــهُ
لمـــؤمَّـــنٌ مـــنْ أنْ يُعَـــدَّ فَسيســـا[1]

لا يستقـــرُّ قَـــرارُ أفكـــاري إلـــى
أنْ أستقِـــرَّ لـــدى عُـــلاكَ جليســـا
وأُرى تجـــاهـــكَ مستقيـــمَ السيـــرِ للـ
ـقصـــدِ الـــذي أعملْتُـــهُ مَعْكـــوســـا
هـــي ديـــنُ أيّـــامـــي فـــإنْ سَمَحَـــتْ بِـــهِ
لـــم يبـــقَ مـــنْ شـــيءٍ عليـــهِ يـــوســـى
لا زالَ صنـــعُ اللَّـــه مجنـــوبـــاً إلـــى
مَثْـــواكَ يهـــدي البشـــرَ والتـــأنيســـا
مُتَـــابِعـــاً كتَتَـــابُـــعِ الأيـــامِ لا
يَـــذَرُ التَعـــاقـــبَ جمعَـــةً وخَميســـا
فَلَـــوَ أنْصفَتـــكَ إيـــالـــةُ الملـــكِ التـــي
رُضْـــتَ الـــزمـــانَ لهـــا وكـــانَ شـــريســـا

---

(١) الفسيس: الضعيف.

قرنتْ بذكركَ والدعاء لكَ الذي
تختارهُ التّسْبيحَ والتّقْديسا
القَلْبُ أنتَ لها رئيسُ حياتها
لمْ تُعتبرْ مهما صلحتَ رئيسا

ثم قال الحافظ التنسي رحمه الله تعالى بعد سرد هذه القصيدة ما معناه: إن لسان الدين ابن الخطيب حَذا في هذه القصيدة السينية حَذْوَ أبي تمام في قصيدته التي أولها[1]:

أقَشيبَ رَبعهمُ أراكَ دريسا
تَقْري ضيوفَكَ لوعةً ورَسيسا

واختلس كثيراً من ألفاظها ومعانيها؛ انتهى.

ووصل لسان الدين هذه القصيدة بنثر بديع نصه:

«هذه القصيدة ـ أبقى الله تعالى أيام المثابة المولوية الموسوية ممتعة بالشمل المجموع، والثناء المسموع، والملك المنصور الجموع ـ نفثة مَنْ باح بسر هَواه، ولبى دعوة الشوق العابث بلبه وقد ظفر بمن يُهدي خبر جواه، إلى محلِّ هواه، ويختلس بعث تحيته، إلى مثير أريحيته، وهي بالنسبة إلى ما يعتقد من ذلك الكمال، الشاذ عن الآمال، عنوانٌ من كتاب، وذواق من أوقار ذات قتاب، وإلاّ فمن يقوم بحق تلك المثابة لسانُه، أو يكافىء إحسانَها

---

(١) ديوانه ٢ : ٢٦٢.

إحسانُه، أو يستقلّ بوصفها يراعه، أو تنهض بأيسر وظيفها ذراعه؟
ولا مكابرة بعد الاعتراف، والبحر لا ينفدُ بالاغتراف، لا سيما
وذاتكم اليومَ والله تعالى يبقيها، ومَن المكاره يقيها، وفي معارج
القرب من حضرة القدس يرقيها، ياقوتة اختارها واعتبرها، ثم
ابتلاها بالتمحيص في سبيل التخصيص واختبرها، وسبيكة أخلصها
مسجرها، فخلصها بتسجيره من الشّوْب، وأبرزها من لباب الذوب،
وقصرت عن هذه الأثمان، وسُرَّ بصدق دعواه البهرمان[1]، ليفاضل
بين الجهام والصَّيّب و ﴿ليميز الله الخبيث من الطيّب﴾ (سورة
الأنفال، الآية: ٣٧) فأراكم أن لا جدوى للعديد ولا للعدة،
وعرّفكم بنفسه في حال الشدة، ثمّ فسح لكم بعد ذلك في المدة،
لتعرفوه إذا دال الرخاء، وهبَّت بعد تلك الزعازع الريحُ الرُّخاء،
وملأكم من التجارب، وأوردكم من ألطافه أعذب المشارب،
ونقلكم بين إمرار الزمان وإحلائه، ولم يسْلُبكم إلّا حقيراً عند
أوليائه، وأعادكم المعاد المُطَهر، وألبسكم من أثواب اختصاصه
المُعْلم المشهّر، فأنتم اليوم بعين العناية، بالإفصاح والكناية، قد
وقف الدهر بين يديكم موقف الاعتراف بالجناية، فإن كان الملك
اليوم عِلْماً يُدرس، وقوانين في قوّة الحفظ تُغرس، وبضاعة برَصْد
التجارب تُحرس، فأنتم مالك دار هجرته المحسوبة، وأصْمعي
شعوبه المنسوبة، إلى ما حزتم من أشتات الكمال، المُرْبية على
الآمال، فالبيت علوي المنتسب، والملك بين الموروث والمكتسب،
والجود يعترف به الوجود، والدين يشهد به الركوع والسجود،

(١) البهرمان: العصفر.

والبأس تعرفه التهائم والنُّجود، والخلق يحسده الروض المَجود، والشعر يغترف من عذب نمير، ويصدق ما قال: بدىء بأمير وختم بأمير، وإن مملوككم حَوّم من بابكم على العذب البَرود، فعاقه لدهر عن الورود، واستقبل أُفقه ليحقق الرَّصْد، ولكنه أخطأ لقصد، ومن أخطأ الغرض أعاد، ورجا من الزمان الإسعاد، فربما خُبِىء نصيب، أو كان مع الخواطىء سهم مصيب، وكان يؤمل صحبة ركاب الحجاز، فانتقلت الحقيقة منه إلى المجاز، وقَطعت لقواطع التي لم ينلها الحساب، ومنعت الموانع التي خلص منها إلى لفتنة الانتساب، ومن طلب الأيام أن تجري على اقتراحه، وجَبَ لعملُ على اطِّراحه، فإنما هي البحر الزاخر، الذي لا يدرَك منه لآخر، والرياح متغايرة، والسفينة الحائرة، فتارة يتعذر من المرسى لصرف، وتارة تقطع المسافة البعيدة قبل أن يرتدَّ الطّرف، هذا إن سالمها عَطَبُها، وأُعفي من الوقود حَطَبُها، ولقد علم الله جل جلاله ن لقاء ذلك المقام الكريم عند المملوك تمام المطلوب، ممّن يجبر سر القلوب، فإنه ممّا انعقد على كماله الإجماع، وصحَّ في عوالي معاليه السّماع، وارتفعت في وجود مثاله الأطماع، أخلاقاً هذَّبها لكرم الوضاح، وسجية كلف بها الكمال الفضاح، وحرصاً على لذكر الجميل وما يتنافس فيه إلاّ من سَمَتْ همَمُه، وكرمتْ ذممه، ألفت الخلد رممه، إذ الوجود سراب، وما فوق التراب تراب، ولا بقى إلاّ عمل راق، أو ذكر بالجميل يُسَطر في أوراق، حسبما قلت ن قصيدة كتبتها على ظهر مكتوب موضوع أشار به من كانت له لاعة، فوفت بمقترحه استطاعة:

مضـــي الــزمــانُ وكــلُّ فــانٍ ذاهــبٌ
إلاّ جميـــلُ الـــذكـــرِ فهـــو البـــاقـــي

لـــم يبــقَ مــــن إيــوانِ كســـرى بعـــد ذا
كَ الحفـــلِ إلاّ الـــذكـــر فـــي الأوراقِ
هـــلْ كـــان للسفّـــاح والمنصـــور والـ
ـمهـــديّ مـــن ذكـــر علـــى الإِطـــلاقِ
أو للــــرشيــــدِ ولــــلأميــــنِ وصنْــــوهِ
لـــــولا شَبــــاة يــــراعـــةِ الــــوَرَّاقِ
رجـع التـراب إلـى التـراب بمـا اقتضـتْ
فـــي كـــلّ خَلْـــقٍ حكمـــةُ الخـــلاّقِ

وقال من مقامة له في وصف الأندلس والعدوة:

«قلت: فمدينة سبتة، قال: عروس المجلى، وثنية الصباح الأجلى، تبرجت تبرج العقيلة، ونظرت وجهها من البحر في المرآة الصقيلة، واختص ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة، وإذا قامت بيض أسوارها، وكان جبل بنيونش[1] شَمّامة أزهارها، والمنارة منارة أنوارها، كيف لا ترغب النفوس في جوارها، وتهيم الخواطر بين أنجادها وأغوارها؟ إلى المينا الفُلكية، والمراقي الفَلكية، والركية الزكية، غير المنزورة ولا البكية، ذات الوَقود الجزل، المعد للأزل، والقصور المقصورة على الجد والهزل، والوجوه الزُّهر السِّحَن، المضنون بها عن المحَنْ، دار الناشبة، والحامية المضرمة للحرب المناشبة، والأسطول المرهوب، المحذور الألهوب، والسلاح المكتوب المحسوب، والأثر المعروف المنسوب، كرسي الأمراء

(١) بنيونش: قرية إلى الغرب من سبتة.

والأشراف، والوسيطة، لخامس أقاليم البسيطة، فلا حظَّ لها في الانحراف، بَصْرة علوم اللسان، وصنعاء الحُلَل الحسان، وثمرة امتثال قوله تعالى ﴿إنَّ الله يأمر بالعدل والإِحسان﴾ (سورة النحل، الآية: ٩٠) الأمينة على الاختزان، القويمة المكيال والميزان، محشر أنواع الحيتان، ومحط قوافل العصير والحرير والكتّان، وكفاها السكنى ببنيونش في فصول الأزمان، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان، والمدفن المرحوم، غير المزحوم، وخزانة كتب العلوم، والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم، إلاّ أنها فاغرة أفواه الجنوب، للغيث المصبوب، عرضة للرياح ذات الهبوب، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب، ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب، وناهيك بحسنة تُعَدُّ من الذنوب، فأحوال أهلها رقيقة، وتكلُّفهم ظاهر مهما ظهرت وليمة أو عقيقة، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة، وأنساب نفقاتهم في تقدير الأرزاق عريقة، فهم يمصون البلالة مصَّ المحاجم، ويجعلون الخبز في الولائم بعدد الجماجم، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم بالبشير الهاجم، وراعي الجديب بالمطر الساجم، فلا يفضلون على مدينتهم مدينة، الشك عندي في مكة والمدينة» انتهى.

قال عند وصول سلطان الأندلس الغني بالله إلى مدينة فاس بالمغرب سنة ٧٦١ هـ وكان السلطان أبو سالم في استقباله:

سَلا هلْ لديها من مُخَبِّرةٍ ذكرْ
وهل أعشبَ الوادي ونَمَّ به الزهرُ
وهل باكرَ الوَسْميُّ داراً على اللوى
عفَتْ آيُها إلا التوهُّمُ والذكرُ

بلادي التي عاطيتُ مشمولةَ الهوى
بأكنافها والعيشُ فَيْنانُ مُخْضَـ

وجوّي الذي رَبّى جناحيَ وكره
فها أنا ذا ما لي جناحٌ ولا وكـ

نَبَتْ بيَ لا عن جفوةٍ وملالةٍ
ولا نَسَخَ الوصلَ الهنيءَ بها هجـ

ولكنّها الدُّنيا قليلٌ متاعُها
ولذاتها دأباً تزور وتَزْوَ

فمن لي بقربِ العهد منها ودوننَا
مَدىً طال حتى يومُه عندنا شهـ

ولله عينا من رآنا وللأسى
ضرامٌ لهُ في كلّ جانحة جمـ

وقد بددت درَّ الدموع يدُ النوى
وللشوق أشجانٌ يضيقُ لها الصد

بكينا على النهرِ الشَّروبِ عشيَّةً
فعادَ أُجاجاً بعدنا ذلك النهـ

أقولُ لأظعاني وقد غالها السُّرَى
وآنسها الحادي وأوحشَها الزجـ

رويدَكِ بعد العُسْرِ يسرٌ أن ابشري
بإنجازِ وعدِ الله، قد ذهبَ العسـ

ولله فينا سرُّ غيبٍ، وربما
أتى النفعُ من حالٍ أُريدَ بها الضـ

وإن تخـــنِ الأيـــامُ لـــم تخـــنِ النُّهـــى
وإن يخــذلِ الأقــوامُ لــم يخــذلِ الصبــرُ
وإن عــركَــتْ منــي الخطــوبُ مجــرّبــاً
نقــابــاً تســاوَى عنــدهُ الحلــو والمُــرُّ
فقــد عجمــت عــوداً صليبــاً علــى الــردى
وعَــزْمــاً كمــا تمضــي المهنَّــدةُ البُتْــرُ
إذا أنــتَ بــالبيضــاء قــررتَ منــزلــي
فــلا اللحــمُ حِــلٌّ مــا حييــتَ ولا الظهــرُ
زَجــرْنــا بــإبــراهيــمَ بُــرْءَ همــومِنــا
فلمّــا رأينــا وجهــه صَــدَقَ الــزجْــرُ
بمنتجــبٍ مــن آل يعقــوبَ كلّمــا
دجــا الخطــبُ لــم يكــذب لعــزمتــه فجــرُ
تنــاقلــتِ الــركبــانُ طيــبَ حــديثــه
فلمّــا رأتــه صَــدَّقَ الخَبَــرَ الخُبْــرُ
نَــدىً لــو حــواه البحــر لــذَّ مــذاقُــهُ
ولــم يتعقــبْ مَــدَّهُ أبــداً جــزرُ
وبــأسٌ غــدا يــرتــاعُ مــن خــوفــه الــردى
وتَــرْفــلُ فــي أثــوابــه الفتكــةُ البِكــرُ
أطــاعتــهُ حتــى العُصــمِ فــي قُنَــن الــرُّبــى
وهشّــتْ إلــى تــأميلــه الأنجــمُ الــزُّهــرُ
قصــدنــاك يــا خيــرَ الملــوك علــى النــوى
لتنصفنــا ممّــا جنــى عبــدُكَ الــدهــرُ

كففنــا بــكَ الأيــامَ عــن غُلَــوائهــا
وقــد رابنــا منهــا التعسّــفُ والكبــرُ
وعُــذنــا بــذاك المجــدِ فــانصــرَمَ الــردى
ولــذنــا بــذاكَ العــزم فــانهــزمَ الــذعــرُ
ولمَّــا أتينــا البحــرَ يُــرْهَــبُ مــوجُــهُ
ذكــرنــا نــداكَ الغمــرَ فــاحتقــر البحــرُ
خــلافتــك العظمــى ومَــن لــم يــدِنْ بهــا
فــإيمــانُــهُ لغــوٌ وعــرفــانُــهُ نُكــرُ
ووصفــك يهــدي المــدحَ قصــدَ صــوابــه
إذا ضــلَّ فــي أوصــافِ مَــن دونــك الشعــرُ
دعتــك قلــوبُ المــؤمنيــن وأخلصــتْ
وقــد طــاب منهــا الســرُّ لله والجهــرُ
ومَــدَّتْ إلــى الله الأكــفَّ ضــراعــةً
فقــال لهــن الله: قــد قُضِــيَ الأمــرُ
وألبسهــا النعمــى ببَيعتــكَ التــي
لهــا الطــائرُ الميمــونُ والمحتــدُ الحــرُّ
فــأصبــح ثَغْــرُ الثغــرِ يبســمُ ضــاحكــاً
وقــد كــان ممّــا نــابــهُ ليــس يَفْتَــرُّ
وأمّنْــتَ بــالسلــم البــلادَ وأهلَهــا
فــلا ظُبــةٌ تَعْــرَى ولا روعــةٌ تعــرو
وقــد كــانَ مــولانــا أبــوك مُصَــرِّحــاً
بــأنــك فــي أبنــائــه الــولــدُ البَــرُّ

وكنتَ حقيقاً بالخلافةِ بعده
على الفورِ، لكنّ كلُّ شيء له قدرُ

وأوحشتَ من دارِ الخلافةِ هالةً
أقامت زماناً لا يلوح بها البدرُ

فردَّ عليكَ اللّهُ حقَّكَ إذ قضى
بأن تشملَ النّعمى وينسدلَ السترُ

وقاد إليك الملكَ رفقاً بخلقه
وقد عدموا ركنَ الإمامة واضطرُّوا

وزادكَ بالتمحيصِ عزّاً ورفعةً
وأجراً، ولولا السبك ما عُر التبرُ

وأنت الذي تُدْعى إذا دهم الردى
وأنت الذي تُرْجى إذا أخْلفَ القطرُ

وأنت إذا جار الزمانُ محكَّمٌ
لك النقضُ والإبرامُ والنهيُ والأمرُ

وهذا ابنُ نصر قد أتى وجناحُهُ
مَهيضٌ، ومن علياك يُلْتَمسُ الجبرُ

غريبٌ يرجّي منك ما أنتَ أهلهُ
فإن كنت تَبغي الفخرَ قد جاءك الفخرُ

ففُزْ يا أميرَ المسلمين ببيعَةٍ
موثَّقة قد حلَّ عروتها الغدرُ

ومثلُكَ من يرعى الدخيلَ ومن دعا
بيا لمَرينٍ جاءه العزُّ والنصرُ

وخـذْ يـا إمـامَ الحـقّ بـالحـقّ ثـأرَهُ
ففـي ضمـنِ مـا تـأتـي بـه العـزُّ والأجـرُ

وأنـت لهـا يـا نـاصـرَ الحـق فلتقـمْ
بحـقّ فمـا زيـدٌ يـرجّـى ولا عمـرو

فـإن قيـل مـالٌ، مـالـك الـدَّثْـرُ وافـرٌ
وإن قيـل جيـش، عنـدك العسكـرُ المجْـرُ

يُكـفُّ بـك العـادي، ويحيـا بـك الهـدى
ويَبْنـي بـك الإسـلامُ مـا هـدم الكفـرُ

أعـدهُ إلـى أوطـانـه عنـك راضيـاً
وطـوّقْـهُ نعمـاك التـي مـا لهـا حَصْـرُ

وعـاجِـلْ قلـوبَ النـاس فيـه بجبـرهـا
فقـد صَـدَّهُـمْ عنـهُ التغلُّـبُ والقهـرُ

وهـم يـرقبـونَ الفعـلَ منـك وصَفْقَـةً
تحـاولهـا يمنـاكَ مـا بعـدهـا خُسْـرُ

مَـرامُـكَ سهـلٌ لا يـؤودُكَ كُلْفـةً
سـوى عَـرضٍ مـا إن لـه فـي العـلا خطْـرُ

ومـا العمـرُ إلا زينـةٌ مستعـارةٌ
تُـرَدُّ، ولكـنَّ الثنـاء هـوَ العمـرُ

ومـن بـاعَ مـا يفنـى ببـاقٍ مخلَّـدٍ
فقـد أنجـحَ المسعـى وقـد ربـح التجـرُ

ومـن دون مـا تبغيـه يـا ملـكَ الهـدى
جيـادُ المَـذاكـي والمحجَّلـةُ الغُـرُّ

ورَادٌ وشُقْـرٌ واضحـاتٌ شِيـاتهـا
فـأجسـامهـا تبـرٌ وأرجلهـا درُّ

وشُهْـبٌ إذا مـا ضُمّـرت يـومَ غـارةٍ
مطهَّمـةٍ غـارتْ بهـا الأنجـمُ الـزُّهـرُ

وأُسْـدُ رجـالٍ مـن مَـرِيـن مُخيفـةٌ
عُمـائمهـا بيـضٌ وآسـالهـا سُمـرُ

عليهـا مـن المـاذيّ كـلّ مُفـاضـةٍ
تَـدافَـعُ فـي أعطـافهـا اللُّجَـجُ الخضـرُ

هـمُ القـومُ إن هبُّـوا لكشـفِ مُلمَّـةٍ
فـلا الملتقـى صعـبٌ ولا المـرتقـى وعـرُ

إذا سئلـوا أعطـوا، وإن نـوزعـوا سطـوا
وإن واعـدوا وفـوا، إن عـاهـدوا بـرُّوا

وإن مُـدحـوا! اهتـزوا ارتيـاحـاً كـأنهـم
نشـاوى تمشـتْ فـي معـاطفهـم خمـرُ

وإن سمعـوا العـوراء فـروا بـأنفـس
حـرامٌ علـى هـامـاتهـاً فـي الـوَغـى الفـرُّ

وتبسـم مـا بيـنَ الـوشيـج ثغـورُهـم
ومـا بيـن قُضْـبِ الـدَّوْحِ يبتسـم الـزَّهـرُ

أمـولايَ غـاضـت فكـرتـي، وتبلـدت
طبـاعـي، فـلا طبـعٌ يعيـن ولا فِكـرُ

ولـولا حنـانٌ منـك داركْتَنـي بـه
وأحييتنـي لـم تبـقَ عيـنٌ ولا أثْـرُ

فـأوجـدتَ منـي فـائتـاً أيَّ فـائـتٍ
وأنشـرتَ ميتْـاً ضـمَّ أشـلاءهُ قبـرُ
بـدأتَ بفضـلٍ لـم أكـنْ لعظيمـه
بـأهـلٍ، فجـلَّ اللطـفُ وانفـرجَ والصـدرُ
وطَـوَّقتنـي النعمـى المضـاعفـةَ التـي
يقـلُّ عليهـا منـيَ الحمـدَ والشكـرُ
وأنـت بتتميـم الصنـائـع كـافـلٌ
إلـى أن يعـودَ الجـاهُ والعـزُّ والـوَفْـرُ
جـزاك الـذي أسنـى مقـامـك عصمـةً
يُفَـكّ بهـا عـانٍ ويُنْعَـشُ مضطـرُّ
إذا نحـن أثنينـا عليـكَ بمـدحـة
فهيهـات يحصَى الـرملُ أو يحصـرُ القطرُ
ولكنّنـا نـأتـي بمـا نستطيعـه
ومـن بـذل المجهـود حـق لَـهُ العـذرُ

وكان ابن البنا أهدى إلى لسان الدين قباقب خشب جوز وكتب له بعض أبيات منها:

هـاكهـا ضمـراً مطـايـا حسـانـاً
نشـأت فـي الـريـاض قضبـاً لـدانـا
وثـوت بيـن روضـةٍ وغـديـر
مـرضعـات مـن النميـر لبـانـا
لابسـات مـن الظـلال بـروداً
دونهـا القضـبُ رقـةً وليـانـا

ثم لمّا أراد إكرامها الله
وسنّ لها المنى والأمانا
قصدت بابك العلي ابتداراً
ورجت في قبولك الإحسانا

فأجابه لسان الدين قائلاً:

قد قبلنا جيادَك الدُّهمَ لمّا
أن بلونا منها العتاق الحسانا
أقبلتْ خلفَ كلِّ حِجْرٍ تبيع
خَلَعَتْ وصفها عليه عيانا
فعنينا برعيها وفسحنا
في ربوع العلا لها ميدانا
وأردنا امتطاءها فاتخذنا
من شراكِ الأديم فيها عنانا
قدمتْ قبلها كتيبة سحرٍ
من كتاب سَبَتْ به الأذهانا
مثلما تجنُبُ الجيوشُ المذاكي
عُدَّةً للقاءِ مهما كانا
لم يرقْ مقلتي ولا راق قلبي
كعُلاها براعةً وبَيانا
من يكن مُهْدياً فمثلك يهدي
لم أجدْ للثنا عليكَ لسانا

يقول لسان الدين في ترجمة ابن البناء: فاضل يروقك وقاره، وصقر بَعُدَ مطاره، قدم من بلده يروم اللحاق بكتَّاب الإنشاء وتوسل بنظم أنيق، ونسيب في نسب الإجادة عريق، تُعْرب براعته عن لسان ذليق، وطبع طليق، وذكاء بالأثرة خليق، وبينما هو يُلْحم في ذلك الغرض ويُسْدي، ويعيد ويبدي، وقد كادت وسائله أن تنجح، وليل رجائه أن يصبح، اغتاله الحِمام، وخانته الأيام، والبقاء لله تعالى والدوام، توفِّي بالطاعون في عام واحد وخمسين وسبعمائة وسنه دون الثلاثين، رحمه الله تعالى؛ انتهى.

ومن نثره:

قوله في «الروضة» في ترجمة «ضخام الغصون من شجرة السر المصون» ما صورته: وهي التي أفاءت الظل الظليل، وزانت المرأى الجميل، وتكفلت لمحاسن الشجرة الشمّاء بالتكفيل، وتتعدد إلى غصون المحبوبات، وأقسام موضوعاتها المكتوبات، وغصن المحبين، أصنافهم المرتبين، وغصن علامات المحبة، وشواهد النفوس الصَّبَّة، وغصن الأخبار المنقولة، عن ذوي النفوس المصقولة، وعند تعين هذه الأغصان المقسومة، كمل شكل الشجرة المرسومة، والسّرحة الموصوفة الموسومة، ففاءت الظلال، وكرمت الخلال، فحيي من تفرد وتوحد، واستظل من استهدى واسترشد، ووقف الهائم فخطب وأنشد:

يا سَرْحَةَ الحيِّ يا مَطولُ
شَرْحُ الذي بيننا يطولُ

عنـــــدي مقـــالٌ فهـــل مقـــامُ
تُصغيـــنَ فيـــهِ لمـــا أقـــولُ
ولـــي ديـــونٌ عليـــكِ حَلّـَتْ
لـــو أنّـــهُ ينفـــعُ الحلـــولُ
مـــاضٍ مـــن العيـــشِ كـــان فيـــهِ
منـــزلَنـــا ظلُّـــكِ الظليـــلُ
زالَ ومـــاذا عليـــهِ مـــاذا
يـــا سـَرْحَ لـــو لـــم يكـــنْ يـــزولُ
حَيّـــا عـــن المـــذنـــبِ المعنّـــى
منبتَـــكِ القَطْـــرُ والقَبـــولُ

وقال: فصول في المعرفة تغازل بها عيون الإشارة، إذا قصرت عن تمام المعنى ألسُنُ العبارة، ولله درُّ القائل:

وإذا العقـــولُ تقـــاصـــرت عـــن مـــدرَكٍ
لـــم تتّكـــلْ إلاّ علـــى أذواقهـــا

المعرفة اختراق المراتب الحسية، والنفوس الجنسية، والعقول القدسية، والبروز إلى فضاء الأزل، إذا فني من لم يكن وبقي من لم يزل، مع عمران المراتب، ورؤية الجائز في الواجب:

ومـــن عجـــبٍ أنـــي أَحـــنُّ إليهـــمُ
وأســـألُ شـــوقـــاً عنهـــمُ وهـــمُ معـــي
وتبكيهـــمُ عينـــي وهـــم فـــي ســـوادهـــا
ويشكـــو النـــوى قلبـــي وهـــم بيـــن أضلعـــي

المعرفة مقام يأتلف من جمع مفروق، وأُفول وشروق، وسلّ عروق، ورد مسروق، حتى يذهب الكيف والأين، ويتعين العَين، فيجمع العدد ويجمل، وينحى السوى ومع ذلك لا يهمل:

للعِـــــدا منـــــكَ نصيــــبُ
ولــــكَ السهـــمُ المصيـــبُ
إنّمـــا يـــومُـــكَ يـــومـــا
نِ: خصيـــبٌ وعصيـــبُ

المعرفة مقام سامي المنْعَرَج، عاطر الأرج، ينقل من السّعة إلى الحرج، ومن الشدّة إلى الفرج:

طـــريقـــكَ لا تخفـــى بـــه إن تتبّعـــتْ
خطـــاكَ ولا يخفـــى مبيتُـــكَ فيـــهِ
متـــاعُـــكَ منشـــورٌ علـــى كـــلّ خيمـــةٍ
ورؤيـــاكَ أمـــنٌ مـــن تـــرفّـــع تيـــهِ

المعرفة عين إن لم تبصر أجزاءها، أحسن الله عزاءها، وحقيقة إن لم يجعل الفراق إزاءها، كانت الغيرة جزاءها، فهي دائرة مركزها يجمع، ومحيطها في التفريق يطمع، يستقل الملك أجمع، ويرى من يرى ويسمع من يسمع:

بُعْـــدُ المحيـــطِ مـــن المحـــدّدِ واحـــدٌ
والكـــلُّ فـــي حـــقِّ الـــوجـــودِ ســـواءُ
والحـــقّ يعـــرفُ ذاتـــهُ مـــن ذاتـــه
صـــحَّ الهـــوى فتـــلاشـــت الأهـــواءُ

المعرفة صعود ونزول، ووقوف ووصول، فلا الوصول عن البداية يقطع، ولا البداية عن النهاية تمنع:

مـــــن لــــــه الأمــــــر أجمـــــعُ
كـــــلُّ مـــــا شـــــاء يصنـــــعُ
حصـــــــــلَ القصـــــــــدُ واستقـ
ـــــــرَّ فلـــــم يبـــــقَ مطمـــــعُ

العارف في البداية يشكر الراكع والساجد، ثمّ يعذر الواجد المتواجد، ثمّ يرجم المنكر الجاحد، فإذا انتهى ورُدَّ العدد إلى الواحد؛ قال لسان حالِه:

مـــــن رأى لــــــي نشيــــــدةً
أو علــــــى عينهــــــا أثـــــرْ
فلـــــه الحكـــــم قـــــل لــــــهُ
ذهـــــبَ العيـــــنُ والأثـــــرْ

إلى أن قال: قال الرئيس: العارف هشّ بش بسّام، فيجل الصغير من تواضعه مثلما يجل الكبير، ويبسط من الخامل مثلما يبسط من النبيه، ثمّ علل فقال: وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق، وبكل شيء فإنه يرى فيه الحق، إني لأجد ريح يوسف:

لمعـــتْ نـــارهـــمْ وقـــد عَسعـــسَ الليـ
ـــلُ وضـــجَّ الحـــادي وحـــارَ الـــدليـــلُ
فَتـــأمّلْتهـــا وقلـــتُ لصحبـــي
هـــذه النـــارُ نـــارُ ليلـــى فميلـــوا

العارف شجاع، وكيف لا وهو بمعزل عن هيبة الموت، وجواد، وكيف لا وهو بمعزل عن صحبة الباخل، وصفّاح، وكيف لا ونفسه أكبر من أن تحرجها زلة بشر، ونَسّاء للأحقاد، وكيف لا وذكره مشغول بالحق، وقالوا: مَنْ عرف الله تعالى صفا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كل شيء، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأنس بالله رب العالمين.

الشبلي: ليس لعارف علاقة، ولا لمحب شكوى، ولا لعبد دعوى، من عرف الله سبحانه انقطع، بل خرص وانقمع، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك؛ انتهى.

وقال في بعض تراجم الروضة: الفرع الصاعد إلى الهواء، على خط الاستواء، من رأس العمود القائم، إلى منتهى الوجود الدائم، ويشتمل على قشرٍ لطيف، وجرمٍ شريف، وأفنان ذوات ألوان، قِنوان وغير قنوان، وطَلْع نضيد، وجَنيّ سعيد، فالقشر الحدود والرسوم، وخواص العارف الذي هو المعروف بها والموسوم، والفنون التي يقوم عليها والعلوم، والجرم ظاهر الخلق المقسوم، وعلاجه كما تعالج الجسوم، وباطنه المجاهدات التي عليها يقوم، وقلبه الرياضة والغصون المقامات فيها المقام المعلوم، ومادتها السلوك الذي بتدريج غذائه تبلغ الأفنان والورقات ما تروم، والزهرات اللوائح والطوالع والبواده التي لها الهجوم، والواردات التي تدوم أو لا تدوم، ثمّ الجنى وهو الولاية التي كان الغارس عليها يحوم؛ انتهى.

ولما ذهب لسان الدين ابن الخطيب إلى عامر بن محمد بجبله المشهور زار محل وفاة السلطان المذكور، وقد ألمّ بذكر ذلك في

«نفاضة الجراب» إذ قال: وشاهدت بجبل هنتاتة محل وفاة السلطان المقدس أمير المسلمين أبي الحسن رحمه الله تعالى، حيث أصابه طارق الأجل، الذي فصل الخطة، وأصمت الدعوة، ورفع المنازعة، وعاينته مرفّعاً عن الابتذال بالسكنى مفترشاً بالحصباء، مقصوداً بالابتهال والدعاء، فلم أبرح يوم زيارة محل وفاته أن قلت:

يـــا حسنهـــا مـــن أربُـــعٍ وديـــارِ
أضحـــتْ لبـــاغـــي الأمـــنِ دارَ قَـــرارِ
وجبـــالِ عـــزٍّ لا تـــذلُّ أُنـــوفهـــا
إلاّ لعـــزّ الـــواحِـــدِ القهّـــارِ
ومقـــرِّ تـــوحيـــدٍ وأُسِّ خـــلافـــةٍ
آثـــارهـــا تُنبـــي عـــن الأخبـــارِ
مـــا كنـــتُ أحســـبُ أنَّ أنهـــارَ النـــدى
تجـــري بهـــا فـــي جملَـــةِ الأنهـــارِ
مـا كنـتُ أحسـبُ أنص أنـوارَ الحجـى
تلتـــاحُ فـــي قُنـــنٍ وفـــي أحجـــارِ
محَّـــتْ جـــوانبهـــا البـــرود، وإن تكـــنْ
شبّـــتْ بهـــا الأعـــداءُ جَـــذْوَةَ نـــارِ
هَـــدَّتْ بنـــاهـــا فـــي سبيـــلِ وفـــائهـــا
فكـــأنهـــا صـــرعـــى بغيـــرِ عُقـــارِ

لمّا توعّدها على المجدِ العِدا
رضيتْ بعَيثِ النارِ لا بالعارِ
عمرتْ بجِلّةِ عامرٍ وأعزَّها
عبدُ العزيزِ بمرهَفٍ بتّارِ
فرسا رهانٍ أحرزا قصَبَ الندى
والبأسَ في طلَقٍ وفي مضمارِ
وَرِثا عن النّدْبِ الكبيرِ أبيهما
مَحْضَ الوفاء ورفعةَ المقدارِ
وكذا الفروعُ تطولُ وهي شبيهةٌ
بالأصلِ في ورقٍ وفي أثمارِ
أزرتْ وجوهُ الصِّيدِ من هنتاتةٍ
في جوّها بمطالعِ الأقمارِ
للّهِ أيُّ قبيلةٍ تركتْ لها الـ
ـنظراءُ دعوى الفخرِ يومَ فخارِ
نصرتْ أميرَ المسلمينَ وملكُهُ
قَدْ أسلمْتُه عزائمُ الأنصارِ
وارتْ عليّاً عندما ذهب الردى
والروعُ بالأسماعِ والأبصارِ
وتخاذلَ الجيشُ اللهامُ وأصبحَ الـ
أبطالُ بين تقاعدٍ وفرارِ
كفرتْ صنائعهُ فيمّمَ دارها
مستظهراً منها بعزّ جوارِ

وأقــامَ بيــنَ ظهــورهــا لا يتَّقــي
وَقْــعَ الــردى وقــد ارتمــى بشــرارِ
فكــأنهــا الأنصــارُ لمّــا أنّسَــتْ
فيمــا تقــدَّمَ غــربــةَ المختــارِ
لمّــا غــدا لحظــاً وهــم أجفــانُــهُ
نــابــتْ شفــارهُــمُ عــن الأشفــارِ
حتــى دعــاهُ اللَّــهُ بيــنَ بيــوتهــم
فــأجــابَ ممتثــلاً لأمــرِ البــاري
لــو كــان يمنــعُ مــن قضــاء الله مــا
خَلَصَــتْ إليــهِ نــوافــذُ الأقــدارِ
قــد كــان يـأمـلُ أن يكـافـئَ بعـض مـا
أولــوهُ لــولا قــاطــعُ الأعمــارِ
مــا كــان يقنعــهُ لــو امتــدَّ المَــدى
إلّا القيــامُ بحقّهــا مــن دارِ
فيعيــدُ ذاكَ المــاءَ ذائــبَ فضــةٍ
ويعيــدُ ذاكَ التــربَ ذوبَ نضــارِ
حتــى تفــوزَ علــى النّــوى أوطــانهــا
مــن ملكــهِ بجــلائــلِ الأوطــارِ
حتــى يلــوحَ علــى وجــوه وجــوههــم
أثَــرُ العنــايــةِ ســاطــعَ الأنــوارِ
ويســوّغَ الأمــلَ القصــيِّ كــرامُهــا
مــن غيــر مــا ثنيــا ولا استعصــارِ

ما كان يرضى الشمس أو بدر الدجى
عن دِرْهَمٍ فيهم ولا دينارِ
أو أن يتوّجَ أو يقلّدَ هامها
ونحورها بأهِلّةٍ ودراري
حَقٌّ على المولى ابنه إيثارُ ما
بذلوهُ من نصرٍ ومن إيثارِ
فلمثلها ذُخِرَ الجزاءُ، ومثلُهُ
مَنْ لا يُضيعُ صنائعَ الأحرارِ

وهو الذي يقضي الديونَ وبرُّهُ
يرضيهِ في علنٍ وفي إسرارِ
حتى تحجَّ محلّة رفعوا بها
عَلَمَ الوفاءِ لأعيْنِ النُّظّارِ
فيصير منها البيتُ بيتاً ثانياً
للطائفينَ إليهِ أيَّ بدارِ
تغني قلوبُ القومِ عن هدي بهِ
ودموعُهمْ تكفّي لرميِ جمارِ
حُيّيتِ من دارٍ تكفَّل سعيها الـ
ـمحمود بالزُّلْفى وعقبى الدارِ
وضفَتْ عليكِ من الإله عنايةٌ
ما كرَّ ليلٌ فيكِ إثرَ نهارِ

وممّا اشتمل على نظم لسان الدين ونثره ما كتب به من سَلا إلى سلطانه الغني بالله تعالى، وقد بلغه ما كان من صنع الله سبحانه له

وعودته إلى سلطانه:

«هنيئاً بما خُوِّلْتَ من رفعَةِ الشانِ
وإن كرِهَ الباغي وإنْ رَغمَ الثّاني

وأن خَصَّكَ الرحْمٰنُ جَلَّ جلالُهُ
بمعجزةٍ منسوبةٍ لسُلَيْمانِ

أغار على كرسيّه بعضُ جنّهِ
فألقَتْ لهُ الدنيا مقالدَ إذعانِ

فلمّا رآها فتنةً خرَّ ساجداً
وقال إلهي امْنُنْ عليّ بغفرانِ

وهبْ ليَ ملكاً بعدها ليسَ ينبغي
تقلُّده بعدي لإنسٍ ولا جانِ

فآتاهُ لمّا أن أجابَ دعاءَهُ
من العزّ ما لم يُؤتِ يوماً لإنسانِ

وإن كانَ هذا الأمرُ في الدهرِ مفرداً
فأنتَ لَهُ لمّا اقتديت بهِ الثاني

فقابِلْ صنيعَ الله بالشكر واستعنْ
بهِ وأجْزِ إحسانَ الإلَهِ بإحسانِ

وحقِّ الذي سمّاكَ باسم محمّد
لو أن الصَّبا قد عادَ منهُ برَيْعانِ

لما بلغَ النعمى عليكَ سروره
أليَّة وافٍ لا أليَّة خوّانِ

فإنيّ أنا العبد الصريح انتسابه
كما أنتَ مولاي العزيز وسلطاني

إذا كنــــتَ فــــي عــــزٍّ ومُلــــك وغبطــــة
فقــد نلــتُ أوطــاري وراجعــتُ أوطــانــي»

«مولاي الذي شأنه عَجَب، والإيمان بعناية الله تعالى به قد وَجَب، وعزه أظهره مَنْ برداء العزةِ احتجب، إذا كانت الغاية لا تُدْرَك، فأولى أن تسلّم وتترك، ومنة الله تعالى عليك ليست ممّا يشرح، قد عقل العقل فما يبرح، وقيد اللسان فما يرتعي في مجال العبارة ولا يسرح، اللّهم ألهمنا على هذه النعمة شكراً ترضاه، وإمداداً من لَدُنْك نتقاضاه، يا الله يا الله. سعود أنارت بعد أُفول شهابها، وحياة كرَّت بعد ذهابها، وأحباب اجتمعت بعد فراقها، وأوطان دَنَتْ بعد بُعْدِ شامها من عراقها، وأعداء أذهب الله تعالى رَسْم بغيهم ومَحاه، وبُغاة أدار عليهم الدهر رحاه، وعباد أُعطوا من كشف الغم ما سألوه، ونازحون لو سُئلوا في إتاحة القرب بما في أرماقهم لبذلوه، وسبحان الذي يقول ﴿ولو أنّا كَتبْنا عَلَيهم أنِ اقْتلُوا أنْفُسَكُم أو اخْرجُوا من دياركم ما فَعَلُوه﴾ (سورة النساء، الآية: ٦٦) فليهن الإِسلامَ بياضُ وجهه بعد اسوداده، وتغلُّب إيالة مَنْ لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر على بلاده، وعودة الملك المظلوم إلى معتاده، واستواء الحق النائي جنبه فوق مهاده، ورد الإِرث المغصوب إلى مستحقّه عن آبائه وأجداده. والحمد لله الذي غسل عن وجه الأمّة الحنيفية العار، وأنقذ عُهْدتها وقد ملكها الذعار، فرد المُعار، وأعيد الشّعار، نحمدك اللّهم حمداً يليق بقدسك، لا بل لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

«والعبد يا مولاي قد بهرت عَقْلَه آلاء الله تعالى قبلك، فالفكر

جائل واللسان ساكت، والعقل ذاهل والطرف باهت، فإن أقام رَسْماً للمخاطبة فقلم مرح وركض، وطِرْس هز جناح الارتياح ونفض، ليس هذا المَرام ممّا يرام، ولا هذه العناية التي تحار فيها الأفهام، ممّا تُصْمي غرضه السّهام، فنسأل الله تعالى أن يجعل مولاي من الشاكرين، وبأحكام تقلبات الأيام من المعتبرين، حتى لا يغرّه السّراب الخادع، والدهر المرغم للأنوف الجادع، ولا يرى في الوجود غير الله من صانع، ولا معطٍ ولا مانع، ويمتعه بالعز الجديد، ويوفقه للنظر السديد، ويلهمه للشكر فهو مفتاح المزيد، والسلام» انتهى.

قال لسان الدين في «الإحاطة» عند ترجمة نثره:

وأما النثر فبحر زاخر، ومدى طوله مستاخر، وإنك لم يفخر عليك كفاخر، وقد مرَّ منه في تضاعيف هذا الديوان كثير، ونحن نجلب منه ما يشير إليه مُشير؛ انتهى.

١ ــ فمن ذلك قوله في غرض التحميد ممّا افتتح به الكتاب في التاريخ المتضمن دولة بني نصر: «الحمد لله الذي جعل الأزمنة كالأفلاك، ودول الأملاك كأنجم الأحلاك، تطلعها من المشارق نيرة، وتلعب بها مستقيمة أو متحيرة، ثم تذهب بها غائرة متغيرة، السائق عَجِل، وطبع الوجود مرتجِل، والحي من الموت وجِل، والدهر لا معتذر ولا خَجِل، بينما ترى الدَّست عظيم الزحام، والموكب شديد الالتحام، والوَزَعَة تشير، والأبواب يقرعها البشير، والسرور قد شمل الأهل والعشير، والأطراف تلثمها الأشراف، والطاعة يشهرها الاعتراف، والأموال يحوطها العدل أو يبيحها

الإِسراف، والرايات تُعْقَد، والأعطيات تُنقد، إذ رأيت الأبواب مهجورة، والدسوتَ لا مؤمَّلة ولا مزورة، والحركات قد سكنت، وأيدي الإِدالة قد تمكنت، فكأنما لم يسمر سامر، ولا نهى ناهٍ ولا أمر آمر، ما أشبه الليلة بالبارحة، والغادية بالرائحة ﴿إنما مَثلُ الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح﴾ (سورة الكهف، الآية: ٤٥).

. ٢ ـ ومن نثره قوله في استدعاء إمداد وحضّ على الجهاد: «أيها الناس رحمكم الله تعالى، إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دَهم العدوُّ قصمه الله تعالى ساحَتَهم، ورام الكفرُ خذله الله تعالى استباحتهم، وزحفت أحزاب الطواغيت إليهم، ومد الصليب ذراعيه عليهم، وأيديكم بعزة الله تعالى أقوى، فلا تخفروه، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه، الجهادَ الجهادَ فقد تعين، الجارَ الجارَ فقد قرر الشرع حقه وبيّن، الله الله في الإِسلام، الله الله في أمة محمد عليه الصلاة والسلام، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإِعانة أعانكم الله تعالى عند الشدائد، جَدّدوا عوائد الخير يصل الله تعالى لكم جميل العوائد، صِلوا رحم الكلمة، واسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة. كتاب الله بين أيديكم، وألسنة الآيات تناديكم، وسنّة رسول الله ﷺ قائمة فيكم، والله سبحانه يقول فيه: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم﴾ (سورة الصف، الآية: ١٠) وممّا صح عنه قوله «من اغبرت قدماه في سبيل الله حرّمهما الله على النار» «لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم»

من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا»؛ أدركوا رَمَقَ الدين قبل أن يموت، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عباده، جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حق جهاده:

ماذا يكون جوابكم لنبيكم
وطريقُ هذ العذرِ غير ممهَّدِ

إن قال لِمْ فرَّطمُ في أمتي
وتركتموهم للعدوّ المعتدي

تالله لو أن العقوبةَ لم تُخَفْ
لكفى الحيا من وجه ذاك السيِّدِ

اللهم اعطف علينا قلوب العباد، اللهم بث لنا الحمية في البلاد، اللهم دافع عن الحريم والضعيف والأولاد، اللهم انصرنا على أعدائك، بأحبابك وأوليائك، يا خير الناصرين، اللهم أفرغ علينا صبراً وثبِّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً». انتهى.

ولما استقر (ابن خلدون) بالحضرة جرت بيني وبينه مكاتبات قطعها الظرف جانبه وأوضح الأدب مذاهبه، فمن ذلك ما خاطبته به وقد تسرّى جارية رومية اسمها هند صبيحة الابتناء بها:

أوصيك بالشيخ أبي بكره
لا تأمنن في حالة مكرهْ

واجتنب الشك إذا جئته
جنبك الرحمٰن ما نكرهْ

سيدي لا زلت تتصف بالوالج، بين الخلاخل والدمالج، وتركض فوقها ركض الهمالج، أخبرني كيف كانت الحال، وهل حُطّت بالقاع من خير البقاع الرحال، وأُحكم بمرود المراودة الاكتحال، وارتفع بالسقيا الإمحال، وصح الانتحال، وحصحص الحقُّ وذهب المحال، وقد طولعت بكل بشرى وبشر، وزفَّت هند منك إلى بِشر، فلله من عشية، تمتعت من الربيع بفُرُش مَوْشية، وأبدلت منها أي آساد وحشية، وقد أقبل ظبي الكناس، من الديماس، ومطوق الحمَام، من الحمّام، وقد حسَّنت الوجهَ الجميلَ التّطرية، وأزيلت عن الفرع الأثيث الأبرية[1]، وصقلت الخدود فكأنها الأمرية[2]، وسُلّط الدَّلكُ على الجلود، وأُغريت النورة بالشّعر المولود، وعادت الأعضاء يزلق عنها اللمس، ولا تنالها البنان الخمس، والسحنة يجول في صفحتها الفضية ماء النعيم، والمسواك يلبي من ثنيّة التنعيم، والقلب يرمى من الكف الرقيم[3] بالمقعد المقيم، وينظر إلى نجوم الوشوم فيقول: إني سقيم، وقد تفتح ورد الخفر، وحكم لزنجي الضفيرة بالظفر، واتصف أمير الحسن بالصدود المغتفر، ورش بماء الطيب، ثم أعلق بباله دخان العود الرطيب، وأقبلت الغادة، يهديها اليُمن وتزفها السعادة، فهي تمشي على استحيا، وقد ذاع طيب الريّا وراق حسن المحيّا، حتى إذا نُزع الخف، وقُبِّلت الأكفّ، وصخب المزمار وتجاوب الدف،

---

(١) لعل الأبرية جمع برى بمعنى التراب.
(٢) الأمرية: جمع مرآة.
(٣) الرقيم: المزين.

وذاع الأرج، وارتفع الحرج، وتجوّز اللوى والمنعرج، ونزل على
شر بزيارة هند الفرج، اهتزت الأرض وربت، وعوصيت الطباع
لبشرية فأبت، ولله در القائل[1] :

ومـــرَّتْ فقـــالـــتْ: متـــى نلتقـــي؟
فهـــشَّ اشتيـــاقـــاً إليهـــا الخبيـــثُ

وكـــاد يمَـــزّقُ ســـربـــالـــهُ
فقلـــت: إليـــكَ يســـاقُ الحـــديـــثُ

فلما انسدل جنح الظلام، وانتصفت من غريم العشاء الأخيرة
فريضة السلام، وخاطت خيوط المنام عيون الأنام، تأتّى دنو
الجلسة، ومسارقة الخلسة، ثم عضة النهد، وقبلة الفم والخد،
وإرسال اليد من النجد إلى الوهد، وكانت الإمالة القليلة قبل المد،
ثم الإفاضة فيما يغبط ويرغب، ثم الإماطة لما يشوش ويشغب، ثمّ
إعمال المسير، إلى السرير[2] :

وصـــرنـــا إلـــى الحسنـــى، ورقَّ كـــلامنـــا
ورُضـــتُ فـــذلّـــتْ صعبـــةٌ أيَّ إذلالِ

وهذا بعد منازعة للأطواق يسيرة، يراها الغيد من حسن السيرة،
ثمّ شرع في التكة، ونزع الشّكة، وتهيئة الأرض العزاز[3] عمل
السكة، ثمّ كان الوحي والاستعجال، وحمي الوطيس والمجال،

---

(١) ينسب البيتان إلى بشّار. وهما في ديوانه: ٢٣٢.
(٢) البيت لامرىء القيس، ديوانه: ١٤١.
(٣) العزاز: الصلبة.

وعلا الجزء الخفيف، وتضافرت الخصور الهيف، وتشاطر الطبع العفيف، وتواتر التقبيل، وكان الأخذ الوبيل، وامتاز الأنوك من النبيل، ومنها جائر على الله قصد السبيلِ، فيا لهِا من نعمٍ متداركة، ونفوس في سبيل القحة متهالكة، ونَفَس يقطع حروفَ الحلق، وسبحان الذي يزيد في الخلق، وعظُمت الممانعة، وكثرت باليد المصانعة، وطال التراوغ والتزاور، وشُكي التحاور، وهناك تختلف الأحوال، وتعظمِ الأهوال، وتخسر أوِ تربح الأموال، فمن عصاً تنقلب ثعباناً مبيناً، ونونةٍ[1] تصير تنيناً، وبطل لم يهمله المعترك الهائل، والوهم الزائل، ولا حال بينه وبين قرنه الحائل، فتعدى فتكة السُّلَيك إلى فتكة البرّاض، وتقلد مذهب الأزارقة من الخوارج في الاعتراض[2] ، ثم شق الصف وقد خضب الكف، بعد أن كان يصيب البوسى بطعنته، ويبوء بمقت الله ولعنته:

طعنـــت ابـــن عبـــد الله طعنـــة ثـــائـــر
لهـــا نَفَـــذٌ لـــولا الشعـــاع أضـــاءهـــا[3]

وهناك هدأ القتال، وسكن الخبال، ووقع المتوقع فاستراح البال، وتشوف إلى مذهب الثنوية من لم يكن للتوحيد بمبال، وكثر السؤال على المبال، بما بال، وجعل الجريح يقول وقد نظر إلى دمه، يسيل على قدمه:

---

(١) النونة: السمكة.
(٢) الاعتراض: استباحة القتل.
(٣) البيت لقيس بن الخطيم، ديوانه: ٧.

ي له عـــن دمي المسفـــوك معتـــذر
أقـــول حَمّلْتُـــهُ فـــي سفكـــه تعبـــا

ومن سنان عاد عناناً، وشجاع صار جباناً، كلما شابته شائبة
بيه، أدخل يده في جيبه، فانجحرت الحية، وماتت الغريزة الحية،
هناك يزيغ البصر، ويخذل المنتصر، ويسّلم الأشر، ويُغلب
حصر، ويجفّ اللعاب، ويظهر العاب[1]، ويخفق الفؤاد، ويكبو
جواد، ويسيل العرق، ويشتد الكرب والأرق، وينشأ في محل
لأمن الفَرَق، ويدرك فرعونَ الغرق، ويقوى اللجاج ويعظم الخرق،
لا تزيد الحال إلاّ شدة، ولا تعرف تلك الجائحة المؤمنة إلاّ ردة:

ذا لـــم يكـــن عـــونٌ مـــن الله للفتـــى
فـــأول مـــا يجنـــي عليـــه اجتهـــادهُ

فكم مغرى بطول اللبث، وهو من الخبث، يؤمّل الكرَّة، ليزيل
معرَّة، ويستنصر الخيال، ويعمل باليد الاحتيال:

ـــك لا تشكـــو إلـــى مصمِّـــتِ
فـاصبـر علـى الحمـل الثقيـل أو مـتِ[2]

(١) العاب: العيب.
(٢) المصمت: الذي يهتم ويعتني.

قائمة المراجع والمصادر:

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للم
دار صادر بيروت ١٩٦٨

الأدب العربي في الأندلس الدكتور عبد العزيز
دار النهضة العربية بيروت ط ٢/ ١٩٧٦

الأعلام للزكا
دار العلم للملايين بيروت ط ٧/ ١٩٨٦

تاريخ الأدب الأندلسي الدكتور إحسان ع
دار الثقافة بيروت ط ٥/ ١٩٧٨

الفن ومذاهبه في النثر العربي الدكتور شوقي
دار المعارف بمصر ط ٨

الفن ومذاهبه في الشعر العربي الدكتور شوقي
دار المعارف بمصر ط ١٠

أعمال الأعلام — لسان الدين ابن الخطيب
دار المكشوف بيروت ط ٢/ ١٩٥٦

تاريخ ابن خلدون — ابن خلدون
دار الفكر العربي بيروت

صبح الأعشى — للقلقشندي
دار الكتب العلمية بيروت ط ١/ ١٩٨٩

الفهرس

الفصل الرابع
نثره